

روايات
مصرية
للجيب
٤
فارس الأندلس
الفارس الأسود
د. نبيل فاروق
Abo Badr

من بين أوراق التاريخ جاء ..

من قلب الحضارة والأمل ظهر ..

من أجل العدالة والحق كان ..

رمز الماضي والحاضر والمستقبل ..

الفارس ..

فارس الأندلس ..

د . نبيل فاروق

١ ـ الشيطان ..

مالت الشمس إلى المغيب ، فى تلك البقعة من مملكة (غرناطة) ، آخر ممالك العرب فى (الأندلس) ، واستعدّ المزارعون للعودة إلى منازلهم ، بعد عمل شاق ، استغرق النهار كله تقريبًا ، فى بداية موسم الحصاد ، وراح البعض يجمعون أدواتهم ، ويعيدون ماشيتهم إلى حظائرها ، فى حين انهمك البعض الآخر فى جمع المحاصيل ، التى تم حصادها طيلة النهار ، ووضعها فى أكياس ضخمة ، معدّة لهذا الغرض ، وقال أحد المزارعين فى ارتياح ، وهو يتطلّع إلى المساحات الشاسعة المزروعة أمامه :

ـ المحصول جيد هذا العام .. لم أكن أتوقّع مثله قط .

ابتسم زميله ، وهو يحكم رباط جوال ضخم ، قائلًا :

ـ ولمَ لا ؟.. لقد عملنا بجد طيلة العام ، وكان موسم المطر جيدًا ، و ...

قاطعه الأوّل :

ـ لا تنس مناوشات الحدود .. أنسيت أن القشتاليين يرابضون على مسافة قريبة ، وأن خطط ملكهم (فرناندو) ومليكتهم (إيزابيلا) ، للاستيلاء على ما تبقّى من (الأندلس) ، لم تتوقّف أبدًا ؟

اعتدل الثانى ، ومسح العرق عن جبينه ، وهو يقول :

- لا .. لم أنس هذا أبدا ، ولم أنس أيضا أنهم يزدادون قوة ، فى كل يوم ، وأن ملوكنا يزدادون ضعفا وتشتتا .

تنهد الأول ، وقال :

- لنا الله (سبحانه وتعالى) .

عادا لمزاولة عملهما مرة أخرى ، ثم لم يلبث الأول أن توقف قائلا :

- أتظنهم يستعيدون (الأندلس) حقا ؟

توقف الثانى بدوره ، وقال :

- لو بقى حالنا على ما هو عليه ، فأخشى أن ذلك لن يكون عسيرا ، بالنسبة إليهم .

مط الأول شفتيه فى أسف ، وقال :

- يا للخسارة !

هم بالانحناء لمواصلة عمله ، إلا أنه لمح بطرف عينه فارسا يقترب ، على صهوة جواد أسود ، فزوى ما بين حاجبيه ، وهو يراقبه فى اهتمام ، قائلا :

- من هذا ؟

توقف معظم المزارعين عن عملهم ، وتطلعوا فى قلق إلى حيث يشير زميلهم ، وامتلأت قلوبهم بالرهبة ، لرؤية ذلك القادم ، الذى ألقت عليه الشمس ضوءها الأخير ، فبدا ضخما رهيبا ، يختفى كله داخل درع معدنى ثقيل ، طلى بلون أسود

داكن ، ويرفع بيسراه مشعلا ضخما ، تتطاير منه ألسنة اللهب ، ويمتطى جواده الأسود القوى ، فى مشهد مخيف ، بدا أشبه بمشهد شيطانى خرج من أعماق الجحيم ، ليواجه الدنيا بالنيران والشرور ..

واقترب الفارس الأسود ..

اقترب فى سرعة كبيرة ، وجواده ينهب الأرض نهبا ، ونيران مشعله تتراقص فى عنف ، وتشترك مع خيوط الشمس المحتضرة ، لتلقى على وجهه وهجا مخيفا ، انعكس بعضه على مجنه(*) ، فتألق ببريق أحمر نارى ، وتألق فوقه ذلك الشعار ، الذى لم يكد المزارعون يلمحونه ، حتى هتف بعضهم فى ذعر :

- إنه قشتالى .. هذا شعار القشتاليين ..

فجرت الصيحة موجة من الرعب ، بين المزارعين ، فتدافعوا يحاولون الفرار ، وبعضهم يجاهد لإنقاذ ماشيته ، و ...

ولكن الفارس الأسود بلغ المكان ، بأسرع مما نجحوا هم فى الفرار منه ..

وفى قوة ، ألقى الفارس مشعله ، وسط أجولة المحاصيل ، فصرخ أحد المزارعين :

- لا .. لا تفعل هذا .

(*) المجن : الترس الذى يمسكه الفارس .

واضطرمت النيران فى الأجولة ..

محصول العام كله اشتعل ، أمام أعين الجميع ..

وارتفعت الصرخات ..

وانهمرت الدموع ..

وتفتتت القلوب ..

ولكن كل هذا لم يكن سوى البداية ..

فعلى وهج النيران المشتعلة المتراقصة ، استلّ الفارس الأسود سيفه الضخم ، وراح يهوى به على رءوس وأعناق وصدور المزارعين العزّل ..

وتفجَرتْ الدماء ..

وسقطت الرءوس ..

واختطف مزارع شاب شوكة المزروعات الكبيرة ، واندفع بها نحو الفارس الأسود ، وهو يصرخ :

ـ لن تفعل بنا كل هذا .. لن نسمح لك .

ضرب صدر الفارس بشوكته الحادة فى قوة ، ولكن أسنان الشوكة تحطّمت على درع الفارس ، الذى أطلق ضحكة شيطانية رهيبة ، ثم هوى على عنق الشاب بسيفه ..

وكان الموقف رهيبًا بحق ..

النيران تلتهم المحاصيل ، والفارس الأسود الشيطانى يدور بجواده فى كل مكان ، وسيفه الضخم يهوى بلا رحمة ، على

الأجساد والأعناق ، دون أن يفرّق بين رجل أو امرأة أو حتى طفل ..

أنهار من الدماء سالت ، وامتزجت بالأرض الطيبة ..

أرواح عديدة أزهقت ، دون شفقة أو رحمة ..

وغابت الشمس فى الأفق ، تاركة تلك النيران تلتهم حصاد عام كامل ، وتضىء ساحة القتال ..

بل أرض المذبحة ..

ولم يعد باقيًا على قيد الحياة سوى الفارس الأسود ، ومزارع واحد ..

مزارع كهل ، امتلأ قلبه بالرعب ، عندما أدرك أنه آخر الأحياء ، فانطلق يعدو أمام الفارس الأسود فى رعب ، والفارس يبتعد فى تراخ ، وكأنما لم يعد يعنيه الأمر ، حتى تعثر الكهل ، وسقط على وجهه ، وراح يصرخ :

ـ لا .. لا تقتلنى .. لا .

توقف الجواد الأسود على قيد خطوة واحدة من الرجل ، وانحنى الفارس يضع ذبابة سيفه على عنق الكهل ، الذى صرخ فى انهيار :

ـ الرحمة .. الرحمة .

وهنا أطلق الفارس الشيطانى ضحكة مجلجلة رهيبة ، ثم اعتدل على صهوة جواده ، وأعاد سيفه إلى غمده ، قائلًا بصوت أجش مخيف :

- حسنًا يا رجل .. لن تموت .

لم يصدق الرجل أذنيه ، وهو يرتعد فى رعب ، فى حين استطرد الفارس ، وهو يجذب عنان جواده :

- إننى أحتاج إلى شاهد واحد على الأقل .

وقهقه ضاحكًا مرة أخرى ، ثم انطلق بجواده مبتعدًا ، تاركًا خلفه نهرًا جديدًا ، يجرى على أرض[1] (الأندلس) ..

نهر أفرزته أجساد ضحاياه ..

نهر من الدم ..

★ ★ ★

لم يكد أول شعاع ، من أشعة الشمس ، يسقط على رأس الجواد (رفيق) ، ذلك الجواد العربى الأصيل ، صاحب اللون الأبيض الشاهق ، والمعرفة الناعمة الطويلة ، حتى أطلق صهيلًا خافتًا ، وراح يضرب الأرض بقوائمه فى خفة ، ثم أمال عنقه إلى خيمة قريبة ، وراح يداعب قماشها بمنخره ، وهو يكرر صهيله الخافت عدة مرات ، حتى امتدت يد شابة قوية ، تزيح ستارة الخيمة جانبًا ، وبرز من خلفها وجه (فارس) ، الذى مرر أصابعه وسط خصلات شعره الأسود ، وتثاءب فى عمق ، قبل أن يبتسم قائلًا :

- صباح الخير يا (رفيق) .. إننا أول من استيقظ كالمعتاد .. أليس كذلك ؟ أتاه صوت إلى يمينه ، يقول :

- العكس هو الصحيح يا تلميذى النجيب .

التفت (فارس) إلى (مهاب) ، معلم السلاح ، وقال :

- صباح الخير يا (مهاب) .. هل استيقظت مبكرًا ؟

هز (مهاب) رأسه نفيًا فى بطء ، وقال :

- بل لم أنم بعد يا صديقى .

هتف (فارس) فى دهشة :

- لم تنم بعد ؟!.. لماذا ؟.. هل حدث جديد ؟.. أين الشيخ ؟

أجابه (مهاب) ، وهو يشير إلى الشرق ، إشارة مبهمة :

- لقد رحل الشيخ ، منذ عدة ساعات .

كان هتاف (فارس) مفعمًا بالدهشة هذه المرة :

- رحل ؟!

أومأ (مهاب) برأسه إيجابًا ، وقال :

- نعم .. أتاه رسول غامض ، قضى معه بعض الوقت ، ثم صحبه إلى (غرناطة) ، وأنا أنتظر عودته .

فغر (فارس) فاه فى ذهول ، وبقى لحظات يتطلع إلى (مهاب) فى صمت ، قبل أن يقول فى سخط :

- كل هذا حدث فى الليل ، دون أن أشعر به ؟!

ابتسم (مهاب) مشفقًا ، وهو يقول :

- لقد كنت متعبا بشدة ، بعد رحلة الصيد أمس ، ولم نشأ إيقاظك ، خاصة وأن الشيخ قد رأى ضرورة أن تحتفظ بجهدك ، حتى ..

قاطعه (فارس) ، فى صوت يحمل كل مرارة الدنيا وحنقها :

ـ خطأ .. خطأ ..

سأله (مهاب) فى حيرة :

ـ وما الخطأ فى أن ينام المرء قليلا ، عندما يكون متعبًا يا ولدى ؟

صاح (فارس) فى ضيق :

ـ الخطأ فى أن يستغرق فى النوم ، فلا يعود يشعر بما حوله يا (مهاب) .. ماذا كان يمكن أن يحدث ، لو أن ذلك الذى جاء لم يكن رسولًا ، وإنما خصمًا قويًا ، أو عدوًّا غادرًا ، أراد ذبحنا بلا رحمة ، تحت ستار الليل ؟.. أكان يمتلكنا بهذه البساطة ، ونحن نغرق فى عالم الأحلام ؟.. لا يا (مهاب) .. هذا خطأ .. خطأ كبير ..

ابتسم (مهاب) ابتسامة خفيفة ، حاول أن يخفى بها إعجابه الشديد بتلميذه ، الذى تجاوز مرحلة التعليم والتدريب ، وبدأ يخطو خطواته الأولى ، فى عالم الفروسية والقتال ، ويضع لنفسه منهجه الخاص ، بعد كل ما تعلمه على يده ، من فنون الفروسية والقتال ، وكل ما لقنه إياه الشيخ ، من أصول الحكمة والبلاغة ..

وخُيِّل لـ(مهاب) أنه يرى والد (فارس) ، وقد عاد إلى الحياة ، ووقف أمامه يتحدث إليه ، عن الضرورات والقواعد الضرورية للحياة ، ووجد نفسه يندفع فجأة ، قائلًا :

ـ رحم الله والدك يا (فارس) .. كان فارسًا عظيمًا ، لم يغمض عينيه عن أعدائه أبدًا ، وعلى الرغم من هذا ، فقد نجحوا فى خداعه ، وخيانته ، واغتالوه غيلة وغدرًا ، و ...

انتبه فجأة ، من نظرة (فارس) ، التى تفيض باللهفة والاهتمام ، إلى أنه قد تجاوز الحد المفروض من الحديث ، فبتر عبارته بغتة ، وتطلع فى صمت إلى (فارس) ، الذى قال فى انفعال :

ـ وماذا يا (مهاب) ؟.. وماذا ؟.. أكمل حديثك عن أبى .

لم يكن (مهاب) يرغب فى الاستطراد ، تنفيذًا لرغبة الشيخ وأوامره ، ولكن نظرات (فارس) كانت تستحثه على المواصلة ، فأشاح بوجهه عنها ، وقال محاولًا تغيير دفة الحديث :

ـ أظن أنه من الأوفق أن تستعد للعمل يا صديقى ، فما من مرة ، رحل فيها الشيخ عنا إلى (غرناطة) ، إلا وكانت هناك مغامرة .

ولكن هذه المحاورة لم تخدع (فارس) ، الذى تجاهل قول (مهاب) ، وتابع فى مزيد من اللهفة :

ـ هيا يا (مهاب) .. أكمل حديثك عن أبى .

ارتبك (مهاب) ، وأدرك أنه قد وقع فى الفخ ، وأن (فارس) لن يتراجع أبدا عن معرفة كل شىء عن الأمر ، وبحث فى عقله عن وسيلة للفرار ، ثم لم تلبث الوسيلة أن لاحت له فى الأفق ، فهتف مشيرًا إليه بسبّابته :

ـ لقد عاد الشيخ .

أدار (فارس) رأسه فى سرعة ، إلى حيث يشير (مهاب) ، ثم اندفع فجأة نحو جواده ، ووثب على متنه ، وجذب معرفته ، قائلًا :

ـ هيا نستقبل شيخنا يا رفيق .

انطلق بجواده لاستقبال الشيخ ، فتنهّد (مهاب) فى ارتياح ، وغمغم :

ـ حمدًا لله .. لن أجدنى مضطرًا للحديث ، فى هذه المرة أيضًا .

كان قد نجا من مواجهة (فارس) بالفعل ، وإن كان يعلم عن حق ، أن عودة الشيخ من (غرناطة) ، إنما تعنى بداية مغامرة ..

مغامرة جديدة .

★ ★ ★

٢ ـ الخوف ..

لم تكد الشمس ترتفع فى الأفق ، حتى خرج المزارعون من منازلهم ، وبدأت رحلتهم اليومية نحو المزارع ، لمواصلة جنى محاصيلهم ، وحصاد مزروعاتهم ، فى ذلك الموسم ، الذى يحمل إليهم نتاج أعمالهم ، فى العام كله ..

وفى هذه المرة لم تكن الفرحة تملأ القلوب ..

لم يكن لها مكان ، وسط كل ذلك الخوف ، الذى تنبض به العروق ، وترتجف له الأبدان ..

وعندما بلغ المزارعون حقولهم ، وبدأوا يحصدون مزروعاتهم ، كانت نصف عيونهم تتطلّع إلى الأفق فى خوف ووجل وقلق ..

الخوف من مبعوث الشيطان ..

ذلك الفارس ..

الفارس الأسود ..

ومع هذا الخوف ، الذى يملأ القلوب ، راح الوقت يمضى فى بطء شديد ، وبدت الدقائق أشبه بالساعات ، والساعات تمضى كالدهور ، حتى انتصف النهار ، وقد بلغ الإعياء منهم مبلغه ، من فرط التوتر والقلق ..

وفى ظل شجرة وارفة ، ألقى أحد المزارعين جسده المكدود ، وهو يقول لشقيقه فى تهالك وتوتر بلغا مبلغهما :

ـ يا له من موسم !.. كان المحصول جيدًا ، ولكن ذلك الشيطان الأسود أتلف جزءًا كبيرًا منه ، وأثار الرعب فى المنطقة ، فانخفضت قيمة كل شىء .

غمغم شقيقه فى مرارة :

ـ كان المفروض أن ترتفع الأسعار ، نظرًا لقلة ما يتمّ حصاده ، ولكن ذلك الجشع (شالوم) ، يستغل الظروف ، ويرفض دفع أكثر من نصف الثمن .

هزّ الأول رأسه فى أسف ، وقال :

ـ لقد باعه البعض محاصيلهم بالفعل ، على أن يتولّى هو مهمة حصادها وجمعها ، وهو يبتاع الثمار بثمن بخس .. ياله من يهودى جشع !

تنهّد شقيقه ، وقال :

ـ إنها شيمة هؤلاء القوم .

ثم نهض ليكمل عمله ، وهو يستطرد :

ـ لقد عرض (شالوم) شراء المحصول كله بنصف الثمن ، على أن يتولّى هو مهمة الحصاد ، ولكننى رفضت تمامًا ، وقلت له : إن ذلك الشيطان الأسود لن يجرؤ على مهاجمة مزرعتى ، وإلا قطعت عنقه ، و ...

شق الهواء بغتة ذلك الصفير الحاد ، ثم أطلق الرجل شهقة

قوية ، بترت عبارته واتسعت عيناه فى هلع ، ولوّح بكفيه فى الهواء لحظة ، جعلت شقيقه يهبّ هاتفًا فى ارتياع :

ـ ماذا حدث ؟

ولكن الرجل سقط فجأة عند قدميه جثة هامدة ، وقد انغرس فى ظهره سهم أسود رفيع ، فصرخ الشقيق :

ـ لا .. لا ..

وعندما رفع عينيه إلى الأفق ، وقع بصره عليه ..

على الشيطان ..

الشيطان الأسود ..

وانطلقت صرخات الرعب ، وساد الهرج والمرج ، وراح الجميع يتدافعون فى محاولة للفرار ، ولكن الفارس الضخم بدرعه الأسود المقيت ، أوقف جواده فى هدوء ، ثم راح يلتقط سهامه السوداء من كنانته(*) ، ويدسّها فى وتر قوسه ، ثم يصوبها إلى الهاربين ، ويطلقها فى استهتار تام ..

واخترقت السهام الصدور والظهور ..

وسقط القتلى ..

مذبحة جديدة شهدتها أرض (الأندلس) ..

مذبحة راح ضحيتها عشرات الأبرياء ..

(*) الكنانة : هى الجعبة التى توضع فيها السهام ، خلف الظهر .



أوقف جواده فى هدوء، ثم راح يلتقط سهامه السوداء من كنانته، ويدسها فى وتر قوسه، ثم يصوّبها إلى الهاربين ..

وكالمعتاد ، أشعل الفارس نيرانه فى المحاصيل ، وترك خلفه شاهدا واحدًا ..

وكانت جولة جديدة ، سالت فيها الدماء العربية .. جولة شيطانية ..

★ ★ ★

- إنها المرة الثالثة ..

قالها الشيخ فى لهجة عجيبة ، تجمع ما بين الضيق والقوة والغضب والحزم ، وهو يتطلع إلى وجه (فارس) ، الذى امتعض على نحو واضح ، وهو يهتف :

- العزّل .. أيقتل العزّل بالفعل ؟

أجابه الشيخ :

- إنه لا يتورع عن ارتكابه أية أفعال .

قال (فارس) فى غضب :

- يا للحقير !

أما (مهاب) ، فقد سأل الشيخ فى اهتمام :

- ولماذا اختار مدينة (قيجاطة) بالذات ؟

أجابه الشيخ :

- ربما لقربها من الحدود مع (قشتالة) ، فالشهود الذين تركهم على قيد الحياة ، أجمعوا على أن مجنه يحمل شعار القشتاليين ، ومولاى (ابن الأحمر) ، يميل إلى الظن ، بأن

ذلك الشيطان الأسود يعبر الحدود ، من مناطق سرية ، ليضرب ضربته الغادرة الحقيرة ، ثم يعود إلى (قشتالة) ، قبل أن يتحرك جنودنا للإيقاع به .

هتف (فارس) مستنكرًا :

- وأين حاكم المدينة ، ورئيس جندها ؟ .. لماذا لا يتصدون لهذا الحقير ، ويعملون على حماية رعيتهم ومحاصيلهم ؟

تطلع إليه الشيخ فى صمت ، ثم قال ، والأسف يتقاطر من حروف كلماته :

- ربما كان للحاكم يد فى هذا .

صاح (فارس) :

- مستحيل !.. إنه عربى .

نظر الشيخ فى عينيه مباشرة ، وهو يقول :

- لماذا تظننا خسرنا ثلاثة أرباع (الأندلس) إذن ؟

أشاح (فارس) بوجهه ، مغمغمًا :

- ليس هذا هو السبب الوحيد .

تجاوز الشيخ هذه النقطة ، وقال دون أن يناقشها مع (فارس) :

- المهم أن هذا الشيطان الأسود قد نجح فى إثارة موجة من الخوف ، لم يسبق لها مثيل ، فى تلك المدينة ، المتاخمة للحدود ، وهذا الخوف سيمتد حتمًا إلى مدن أخرى ، وسيكمن

فى أعماق الناس ، ويزرع فى نفوسهم خوفًا مبهمًا من القشتاليين ، يجعلهم غير قادرين على قتالهم فيما بعد ، إلا إذا ..(*)

سأله (فارس) فى اهتمام :

- إلا إذا ماذا ؟

تطلع الشيخ إلى عينيه لحظة ، قبل أن يقول فى حزم :

- إلا إذا تم القضاء على ذلك الشيطان .

شد (فارس) قامته ، وهو يقول فى حزم :

- لن يطول به المقام هنا .

ثم التفت إلى جواده ، مستطردًا :

- أليس كذلك يا (رفيق) ؟

حرك الجواد العربى الأصيل عنقه ، وكأنه فهم سؤال فارسه ، ثم أطلق صهيله القوى ، الذى رددته السهول .. سهول (الأندلس) .

* * *

كنسمة رقيقة حانية ، تسللت الأميرة (جميلة) إلى حجرة والدها ، ملك (غرناطة) ، وسيد (بنى الأحمر) ، وتوقفت لحظة ببابها ، تتطلع فى قلق إلى والدها ، الذى أسند جبهته إلى قبضته المضمومة ، فى شرفة حجرته بقصر (الحمراء) ، آخر

(*) هذا الأسلوب يعرف حاليا باسم (الحرب النفسية) ..

حصون العرب فى (الأندلس) ، وقد رسمت الهموم خطوطها فى وجهه ، وحفرت دروبها فى ملامحه ، وأطلت منها فى وضوح ..

وفى إشفاق وتعاطف ، سارت الأميرة نحو والدها ، ولمست كتفه بأناملها فى رفق ، وهى تهمس فى حنان :

ـ أبى .

جفل الملك لحظة ، ثم لم يلبث أن تطلع إليها بكل حنان الأبوة فى أعماقه ، وقال :

ـ ماذا تطلبين يا بنيتى ؟

جلست أمامه فى رقة ، وهى تجيب :

ـ لم أحضر لأطلب شيئا يا أبى ، وإنما جئت لأنك ستحتاج حتما إلى من تتحدث إليه ، ولن تجد ، فى بلاد العرب كلها ، أذنا تعشق الإصغاء إليك كأذنى .

ابتسم ابتسامة حانية ؛ وربت على كتفها ، مغمغما :

ـ بوركت يا بنيتى .

قالت متطلعة إليه فى إشفاق :

ـ سمعت ما يردده الجميع هنا ، عن ذلك الفارس الأسود ، الذى يثير الرعب فى (قيجاطة) ، ورأيت الشيخ يأتى إلى هنا ، قبيل الفجر بساعات ، وفهمت كل شىء .

تطلع الملك فى شرود إلى (غرناطة) ، بقصورها وسهولها ، وهو يقول :

ـ إنه أفضل الحلول يا بنيتى .

سألته فى حيرة :

ـ ولكن لماذا ترسل (فارس) من هنا إلى هناك ، للتصدى لذلك الفارس الأسود ؟.. إنه مجرد قشتالى واحد ، مهما بلغت قوته ، وكان يمكنك إرسال فرقة للقضاء عليه .

أجابها فى شروده :

ـ وهذا ما ينشده القشتاليون يا (جميلة) ، فالكل يعلم أن فارسا قشتاليًّا واحدا قد أثار الرعب ، فى جزء من مملكة (غرناطة) ، ولو أرسلنا فرقة كاملة للتصدى له ، لقال الناس : إننا لا نستطيع التصدى لفارس قشتالى واحد ، إلا بفرقة كاملة ، فما بالك بجيش القشتاليين كله ؟!

ثم زفر فى حرارة ، قبل أن يتابع فى حزم وانفعال :

ـ وكان من الضرورى أن نتصدى للفارس القشتالى بفارس واحد ، يمتلك القدرة على التصدى له ، ويحمل فى الوقت ذاته ذلك الرمز المنشود .

سألته فى اهتمام :

ـ رمز ماذا ؟

أجابها فى حسم :

ـ رمز الفارس .

ثم عاد يلقى ببصره على (غرناطة) كلها ، قبل أن يضيف :

ـ فارس (الأندلس) .

★ ★ ★

٣ - المواجهة ..

بعد يوم وليلة ، قضتهما الجياد ، وهى تنهب الأرض نهبًا ، ومع الخيوط الأولى لأشعة الشمس ، فى فجر اليوم التالى ، بلغ (فارس) و(مهاب) (قيجاطة) ، ودخلها جواداهما متهالكين ، والزبد يسيل من شدقيهما ، وقال (مهاب) فى إرهاق واضح :

- أخيرا .

أجابه (فارس) وهو يجذب معرفة جواده فى رفق ، ليخفف من سرعته :

- إنها البداية فحسب يا صديقى .

تمتم (مهاب) :

- نعم .. إنها البداية .

ثم أضاف وهو ينحرف بجواده ، نحو درب من دروب المدينة :

- سنتجه الآن إلى منزل (سالم بن جسور) .. لقد أرسل إليه الشيخ رسالته ، وهو ينتظرنا الآن .

سأله (فارس) :

- أيعلم طبيعة مهمتنا ؟

أجابه (مهاب) :

- إنه يعلم كل شىء .

هزّ (فارس) رأسه فى حيرة ، وقال :

- وكيف أبلغه الشيخ بالأمر ، بهذه السرعة ؟

ابتسم (مهاب) ، وقال :

- للشيخ وسائله

تطلّع إليه (فارس) لحظة ، قبل أن يقول :

- إنه (فهد) .. أليس كذلك ؟

هزّ (مهاب) كتفيه ، وقال :

- أو هو الحمام الزاجل .

قال (فارس) فى حسم :

- لم أر حمامًا زاجلا ، فى مخيمنا قط .

كان ينتظر جوابًا شافيًا من (مهاب) ، ولكن هذا الأخير أشار إلى منزل قريب ، له قبة خضراء صغيرة ، أشبه بقباب المساجد ، وقال :

- لقد وصلنا .

اجتازا بجواديهما بوابة المنزل الكبيرة إلى ساحته ، ولم يكد (فارس) يهبط عن جواده ، حتى سمع من خلفه صوتًا يتهدّج قائلا :

- مرحبًا .. مرحبا .. حللتما أهلا ، ونزلتما سهلًا .

التفت ليرى رجلا قوى البنيان ، يميل جسده إلى البدانة بعض الشىء ، له لحية قصيرة ، وشارب معتنى به كثيرًا ،

وهو يتجه إلى (مهاب) ، ويصافحه فى حرارة شديدة ، وهو يستطرد :

- مرحى يا (مهاب) .. مرحى يا رجل .. مرحبًا بسيِّد الفرسان وقائدهم ، فى منزلى المتواضع .

صافحه (مهاب) بابتسامة كبيرة ، وهو يقول :

- سنوات طوال لم نلتق يا (سالم) .. لقد ازددت بدانة يارجل ، ولكنك مازلت قويًا .. كيف حالك ؟

ضحك (سالم) ، وقال :

- أما أنت فلم تختلف كثيرًا يا صديقى .. وخط الشيب فوديك فحسب ، ولكنك ما تزال كعهدى بك ، ممشوق القوام ، متين البنيان .

ثم التفت إلى (فارس) ، وهتف :

- رباه !.. أهذا هو ؟

أجابه (مهاب) فى اقتضاب :

- إنه هو .

بقى (سالم) لحظات ، يتطلع إلى (فارس) فى انبهار ، ثم مدّ يده يتحسّس وجهه ، وهو يقول فى انفعال :

- إنه صورة طبق الأصل منه .. كأنى به قد عاد إلى الحياة .. رباه .

ثم انخفض صوته ، وتضاعف انفعاله ، وهو يستطرد :

- مولاى .. مرحبًا بك يا مولاى .

كان (فارس) يتمنى لو يسأل الرجل عن والده ، ولكنه كان قد اعتاد أن يكتم عنه الجميع الأمر ، فاكتفى بالقول :

- هل وصل (فهد) قبلنا ؟

تراجع الرجل ، وقال :

- مَن (فهد) هذا ؟

كان (فارس) واثقًا من أن (سالم) يعرف (فهد) جيدًا ، ولكنه لم يشأ مناقشة هذا الأمر أيضًا ، وترك (سالم) يستطرد :

- هيا .. أنتما وجواداكما تحتاجان إلى الراحة والطعام والنوم ، فأمامكم جميعًا مهمة شديدة الصعوبة .

تمتم (فارس) فى حزم :

- ليس إلى هذا الحد .

احتفى بهما (سالم) كثيرًا ، وتركهما يغتسلان جيدًا ، ثم مدّ مائدة الطعام ، التى حوت كل ما لذّ وطاب ، ولكن الفارسين اكتفيا بلقيمات قليلة ، وهما يستمعان إلى (سالم) ، الذى راح يقصّ عليهما كل ما فعله ذلك الفارس الأسود ، ثم قال (فارس) فى اهتمام :

- أتؤمن حقًا بأنه يضرب ضربته فى كل مرة ، ثم يجتاز الحدود ؟

تطلّع إليه (سالم) لحظة ، قبلَ أن يقول فى حزم :

- لو أردت رأيى ، فهو يقيم هنا .. بيننا .

هتف (مهاب) مستنكرا :

ـ هنا .. أواثق أنت يا (ابن جسور) ؟

أشار (سالم) بيده ، قائلا

ـ أعقلها معى يا (مهاب) .. ذلك الفارس الأسود يعرف جيدًا ، متى يضرب ضربته ، وأين ، وهذا يعنى أنه هناك من ينقل إليه الأخبار والمعلومات ، ثم إن عبوره الحدود فى كل مرة ، يعرّضه لمخاطر شتى ، ولاشتباكات غير متوقّعة ، مع فرق الجند والعسكر ؛ لذا فمن الأفضل أن يبقى الفارس الأسود هنا ، داخل حدودنا ، بحيث يمكنه الظهور وقتما ، وأينما يشاء .

سأله (فارس) فى اهتمام :

ـ ما الذى قصدته ، بقولك : إنه يعرف جيدًا متى وأين يضرب ضربته ؟.. إنه يهاجم المزارعين ، والجميع هنا يخرجون للحصاد يوميًا ، فى موسم الحصاد .. أليس كذلك ؟

أجابه (سالم) :

ـ بلى ، ولكن فى كل مرة ، يختار الفارس الأسود منطقة خالية من الجند تقريبًا ، ليضرب فيها ضربته ، ولست أدرى كيف يفعل هذا ؟

سأله (مهاب) :

ـ من المسئول عن توزيع فرق الجنود ؟

لوّح (سالم) بكفه ، وهو يجيب :

ـ الحاكم ، أو رئيس الجند .

تبادل (مهاب) نظرة ذات مغزى مع (فارس) ، الذى قال فى حزم :

ـ أحدهما ينقل الأسرار ، إلى الفارس الأسود ، إذن .

قال (سالم) :

ـ هذا محتمل .

بدت علامات التفكير العميق على وجه (فارس) ، ولكن ذهنه كان يعجز عن تركيز أفكاره ، على نحو مناسب ، وتساءل هو عن سر هذا ، قبل أن يقول (سالم) ، مجيبًا عن تساؤله ، دون أن يدرى :

ـ لا ريب أن أذهانكما مكدودة ، بعد سفركما الطويل ، وأظنكما تحتاجان إلى قدر كبير من النوم .

أجاب (فارس) على الفور :

ـ هذا صحيح .. إننا نحتاج إلى النوم .

وصمت لحظة ، طاف خلالها طيف الفارس الأسود الغامض بذهنه ، قبل أن يردف فى حزم صارم :

ـ وإلى مواجهة .. مواجهة حاسمة ..

★ ★ ★

عاد (شالوم) ، التاجر اليهودى إلى منزله ، فى منتصف

النهار تقريبًا ، واستقبله خادمه النحيل ، ذو الأنف المعقوف ، وعاونه على الهبوط عن جواده . فسأله (شالوم) ، هامسًا فى لهفة واضحة :

- هل استيقظ الضيف يا (حام) ؟

أجابه الخادم بنفس الهمس :

- نعم يا سيدى .. لقد استيقظ بعد رحيلك بقليل ، وأدى بعض تدريبات السيف ، فى الساحة الخلفية ، ثم تناول طعام الإفطار ، وكأسًا من خمرك المفضلة ، وهو الآن فى الساحة الخلفية ، يتدرب على قوسه ونشابه .

أسرع (شالوم) إلى ساحة منزله الخلفية ، وتطلع مبهورًا إلى ضيفه الضخم الجثة ، المتين البنيان ، وهو يطلق سهامه فى سرعة وتتابع ، نحو الهدف المستدير ، فى نهاية الساحة ، لتتزاحم كلها فى منتصف الهدف تمامًا ، ويحطم بعضها بعضًا ، قبل أن يمط الضيف شفتيه ، ويقول فى لامبالاة :

- لا بأس .

هتف (شالوم) :

- بل أرى ذلك رائعًا يا سنيور (ماريو) .

التفت إليه الضيف فى هدوء ، وألقى عليه نظرة مستهترة ، قبل أن يقول بلغة القشتاليين(*) ، وبلهجة تحمل شيئًا من الصرامة :

(*) الإسبانية .

- هل عدت أخيرًا ؟

هرع إليه (شالوم) ، وانحنى أمامه فى توقير ، وهو يقول :

- معذرة أن اضطررت للانصراف ، قبيل استيقاظك يا سيد الفرسان ، ولكن أحد رجالى أبلغنى خبرًا ، كان من الضرورى أن أتأكد منه ، قبل إبلاغك إياه .

ألقى (ماريو) قوسه ونشابه جانبًا ، واتجه إلى منضدة قريبة ، التقط من فوقها زجاجة خمر ، صب لنفسه قليلًا منها ، فى كأس فضية ، رفعها إلى شفتيه ، وهو يقول فى صرامة .

- أية أخبار تلك ؟

مال (شالوم) نحوه ، وهمس :

- لقد وصل .

برقت عينا (ماريو) ، وهو يقول فى انفعال :

- أواثق أنت ؟!

أجابه (شالوم) فى لهجة تفيض خبثًا ودهاء :

- لقد رآه الرجل بنفسه ، عندما وصل إلى هنا فجر اليوم ، مع أستاذه ، وقائد الفرسان السابق (مهاب) .. صحيح أنه لم يكن يرتدى زيه الأبيض ، ولا حرملته الخضراء وخوذته الفضية ، ولكن ذلك الرسم ، الذى صنعه (يافث) ، ساعد

الرجل فى تعرفه فور وصوله ، فتبعه إلى منزل فارس سابق ، يدعى (سالم بن جسور) ، وهو يقيم هناك الآن .

برقت عينا (ماريو) مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ عظيم .

وجرع كأسه دفعة واحدة ، قبل أن يمسح شفتيه بيده ، مستطردا :

ـ داهية هو مليكنا (فرناندو) .. لقد استنتج كل خطوة سيقدم عليها العرب ، عندما أرسلنى إلى هنا ، وأدرك أنهم سيحاولون مواجهتى بفارس واحد من فرسانهم ، حتى لا يضيفوا إلى القصص ، التى ستحاك عنى قوة ، وأنهم سيختارون هذا الفارس بالذات ..

وابتسم فى جذل ساخر ، وهو يتابع :

ـ وستكون مواجهة طريفة بالفعل .. مواجهة الأبيض والاسود .. وسنرى من منا ينتصر .

قالها وأطلق ضحكة رهيبة ، جلجلت فى المكان .. ضحكة شيطان ..

★ ★ ★

من المؤكد أن (فارس) كان مجهدا بحق ، فلم يكد يضع رأسه على الوسادة الناعمة ، فى الحجرة التى قدمها له (سالم) ، حتى راح فى سبات عميق ..



هرع إليه (شالوم) ، وانحنى أمامه فى توقير ، وهو يقول :

ـ معذرة أن اضطررت للانصراف ، قبيل استيقاظك يا سيد الفرسان ..

ولكن عقله لم يهدأ ..
حتى أحلامه ، كانت تدور كلها حول ذلك الفارس الأسود ، الذى لم يره قط ..
وفى هذه الأحلام ، رسم عقله صورة مخيفة للفارس ..
رسمه عملاقًا من الصلب ، يحمل سيفًا من الفولاذ ، فى حجم شجرة كبيرة ، ويمتطى جوادًا مجنحًا ، تشتعل معرفته لهبا ، وهو يطير فوق رءوس المزارعين ، والفارس يجتزها رأسا بعد أخرى ، فتسيل أنهار الدم ، ويتعالى الصراخ ، و ...
وفجأة ، استيقظ (فارس) ..
شىء ما جعل عقله ينهض فجأة ، ويعود إلى عالم الواقع ..
وانتقل الصراخ معه ، من عالم الأحلام ، إلى عالم الواقع ..
وهبّ الشاب جالسًا على فراشه ، وأرهف سمعه جيدًا ..
نعم .. إنها صرخات رعب وفزع ..
صرخات تأتى من بعيد ..
من وسط الحقول ..
ولم يكن هناك وقت للتفكير ..
ولا لإبدال الثياب ..
لقد قفز (فارس) من فراشه ، والتقط سيفه ، ثم اندفع إلى ساحة المنزل ، واندفع (سالم) خلفه ، يهتف فى قلق :
- انتظر يا مولاى .. لا تواجهه وحدك .

ولكن (فارس) وثب على صهوة (رفيق) ، وجذب معرفته هاتفا :
- هيا يا (رفيق) .
وقبل أن يضيف (سالم) حرفًا واحدًا ، كان الجواد وفارسه قد عبرا بوابة المنزل ، وانطلقا يسابقان الرياح إلى الحقول ..
واقتربت الصرخات ..
اقتربت ..
واقتربت ..
وأخيرًا لاحت الحقول ..
وانقبض قلب (فارس) فى ألم ..
لقد كانت المحاصيل تشتعل ، بنيران رهيبة متأجّجة ، وجثث القتلى تملأ المكان ، والدماء تسيل أنهارًا ..
وكان هناك مزارع واحد يعدو فى رعب ، وفى أعقابه شيطان ..
شيطان أسود ..
وكان المشهد أكثر مما يحتمل (فارس) ، الذى أطلق صرخة قتالية قوية ، ثم جذب معرفة جواده ، واندفع يخوض به بحر الدم ..
وهنا توقف الفارس الأسود عن مطاردة آخر المزارعين ..
توقف يرفع رأسه ، الذى تخفيها خوذته السوداء المخيفة ،

ويتطلع إلى (فارس) فى اهتمام ، ثم لم تلبث ابتسامته الساخرة أن اختفت خلف درعه وخوذته ، وهو يقول :

ـ مرحبًا بك يا رمز العرب .

واستلّ سيفه بدوره ..

واستعدّ للمواجهة ..

* * *



٤ ـ صليل السيوف ..

« (غالا) ؟! .. »

صرخت الملكة (إيزابيلا) بالاسم فى غضب هادر ، وهى تقف بباب مخدع الملك (فرناندو) ، فانتفضت (غالا) فى ذعر ، وانفلتت من بين ذراعى الملك ، وقالت بصوت مرتجف :

ـ مولاتى .. إننى .. إننى ..

قاطعها (فرناندوا) ، وهو يقول فى هدوء مثير :

ـ مرحبا يا عزيزتى (إيزابيلا) .. أهلا بك فى مخدعى الملكى .

تجاهلته (إيزابيلا) تمامًا ، وهى تقول لـ(غالا) فى غضب :

ـ ماذا تفعلين هنا ؟

ارتبكت (غالا) ، وهى تجيب :

ـ لم أحضر من تلقاء نفسى .. مولاى الملك هو ..

قاطعها (فرناندو) مرة أخرى :

ـ أنا أمرتها بالمجىء إلى هنا .

التفتت إليه (إيزابيلا) ، وقالت فى حدة :

ـ لماذا ؟

ابتسم فى سخرية ، قائلًا :

ـ ما السبب فى رأيك ؟

قالت فى غضب :

ـ أيها الوقح .

انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يقول فى صرامة :

ـ حذار أن تنطقى حرفًا واحدًا ، يهين ذاتى الملكية يا (إيزابيلا) .. حذار .

احتقن وجهها بشدة ، وهى تتطلع إليه ، ثم لم تلبث أن لوحت بكفها لـ(غالا) ، قائلة فى عصبية :

ـ فيم تحدقين .. هيا .. انصرفى .

همت (غالا) بمغادرة المكان ، لولا أن قال (فرناندو) فى صرامة :

ـ إننى لم أفرغ منها بعد ، ولن تغادر المكان إلا بأمرى .

بدا الغضب الشديد على وجه (إيزابيلا) ، ولكنها لم تجد أمامها سوى تجاهل أمر (غالا) مؤقتًا ، حفاظًا على وقارها الملكى ، فقالت لـ(فرناندو) فى حدة :

ـ حسنًا .. أتيت لسؤالك عن سير خطتك فحسب .

صب لنفسه كأسًا من الخمر ، ارتشف منها رشفة صغيرة ، قبل أن يبتسم قائلًا :

ـ كل شئ يسير على ما يرام .. قوة (ماريو) ودرعه الأسود نجحا تمامًا ، فى إثارة الخوف والفزع ، فى

(فيجاطة) ، ولقد حدث ما توقعته تمامًا ، فأرسل (ابن الأحمر) فارسه الأبيض ، للتصدى لفارسنا ، وأراهنك أن (ماريو) سيلقن ذلك الفارس الشاب درسًا لن ينساه أبدًا .

ثم ابتسم ساخرًا ، وهو يضيف :

ـ أقصد لن يجد الوقت لينساه .

كانت تعلم أن خطته ذكية ، ولكنها شعرت فى أعماقها بالرغبة فى إثارته وإذلاله ، فقالت فى ازدراء :

ـ وماذا لو انكشف أمر فارسك ، قبل أن تنتهى مهمته ؟

هز كتفيه ، وقال :

ـ لن يكون هذا سهلًا ، فهو يختفى فى منزل (شالوم) .. أكبر تجار المدينة ، و(شالوم) هذا على صلة وثيقة بالحاكم ، وبرئيس الجند والشرطة ، وهو يعرف منهما كل تحركات الجنود ، ولن يشك أحدهما فى أمره قط .

قالت فى لهجة استفزازية :

ـ وماذا لو حدث ما لا تتوقعه ؟

ارتشف رشفة أخرى من كأسه ، وقال :

ـ عندئذ سيقاتل (ماريو) قتال الأبطال ، ولن يسمح لهم بالإيقاع به أبدًا .

قالت ساخرة :

ـ ومن سيقنعه بالقتال على هذا النحو ؟

أجابها (فرناندو) مبتسمًا :

ـ المكافأة التى وعدته بها .

قالت فى عصبية :

ـ ما من مكافأة ، يمكنها إقناع فارس مستهتر عابث مثل (ماريو) ، بالتضحية بحياته ، من أجل فكرة حمقاء .

قهقه (فرناندو) ضاحكًا ، وقال :

ـ بل هناك مكافأة ، يندر أن يقاومها أى رجل .

سألته (إيزابيلا) فى حذر :

ـ وما هى هذه المكافأة ؟

أطلق ضحكة أخرى ، قبل أن يقول :

ـ بل قولى : من هى ؟

ثم التفت إلى (غالا) ، مستطردًا :

ـ إنها أنت .. أنت يا عزيزتى (غالا) .

وجلجلت ضحكاته مرة أخرى ..

* * *

لوّح (فارس) بسيفه ، وهو ينطلق بجواده نحو الفارس الأسود ، الذى توقف فى موضعه صامتًا ، ساكنًا ، ودرعه الأسود يشترك مع لون جواده ، فى منحه مظهرًا رهيبًا بحق ، وهو يرفع سيفه مستعدًا للقتال ..

وعندما التقى الخصمان ، أطلق (فارس) صيحة قتالية رهيبة ، وهوى بسيفه على سيف خصمه ، الذى استقبل السيف بحد سيفه ، وصلصلت السيوف وسط بحر الدماء ،

وراحت تتقارع فى مهارة وقوة ، تشف عن بأس صاحبيها ، قبل أن يتباعدا فى حركة حادة ، ويقول (فارس) بلغة القشتاليين :

ـ ضرباتك قوية أيها القشتالى ، ولكنها تفتقر إلى المرونة .

أجابه الفارس ، من خلف خوذته المعدنية السوداء ، التى منحت صوته رنينًا مخيفًا ، وترددًا رهيبًا :

ـ لا شأن للمرونة بقتال الفرسان .

هتف (فارس) ، وهو ينقضّ عليه :

ـ من قال هذا ؟

وهوى بسيفه نحوه ، مستطردًا :

ـ إننى أتدرّب دائمًا على تفادى الضربات .

استقبل الفارس الأسود سيف (فارس) على مجنه ، ثم أزاحه بعيدًا ، وهوى بسيفه هو على عنق (فارس) ، قائلًا :

ـ أما أنا فأتدرّب فقط على توجيهها .

مال (فارس) جانبًا فى مرونة ، وتفادى ضربة السيف الضخم ، ثم دفع سيفه نحو صدر الفارس ، قائلًا :

ـ تُرى أينا يربح ؟

ضرب سيفه صدر الفارس ، ثم ارتدّ عن الدرع المعدنى فى عنف ، مطلقًا رنينًا عنيفًا ، تردد صداه فى المكان ، والفارس يقول ساخرًا :

- يمكنك استنتاج هذا .
ثم دفع مجنه فجأة فى وجه (فارس) ، وطوّح سيفه فى معدته ، مستطردا :
- ولن يطول الوقت لهذا .
ارتطم المجنّ بوجه (فارس) ، ومزقت ذبابة السيف بطن قميصه ، فتراجع فى حركة سريعة ، وسمع الفارس الأسود يضيف بلهجته الساخرة :
- وداعًا يا فارس العرب .
وهوى سيف القشتالى على صدر (فارس) ، فتراجع هذا الأخير أكثر وأكثر ، متفاديا طعنة السيف ، فانقضّ عليه الفارس مرة ثالثة ، وأمسك مقبض سيفه بقبضتيه مجتمعتين ، وهوى بنصله القوى على سيف (فارس) ، هاتفا :
- وداعا إلى الأبد .
رفع (فارس) سيفه ، للتصدى لسيف الأسود ، ولكنه شعر وكأن شجرة ضخمة ، من أقدم أشجار الغابة ، قد هوت على سيفه ، فانتزعته من بين أصابعه ، وألقت به بعيدًا ..
وطار سيف (فارس) فى الهواء ..
طار السيف الفضى الشهير ، وتراقص بضع مرات ، قبل أن يسقط وسط الحقول ..
وبضحكة عالية مجلجلة ، صاح الفارس الأسود :

- خسرت يا فارس العرب .
ورفع سيفه مرة أخرى بقبضتيه ، ثم هوى به مرة ثانية ..
وفى هذه المرة ، كان السيف القشتالى يستهدف عنقًا ..
عنق (فارس) ..
(فارس الأندلس) ..

* * *

استيقظ (مهاب) جزعًا ، على صوت (سالم) ، وهو يهتف به :
- استيقظ .. استيقظ يا رجل .
هبّ (مهاب) جالسا على طرف فراشه ، وهو يقول :
- ماذا حدث؟.. ماذا هناك ؟
أجابه (سالم) ، فى صوت يتفجّر منه الانفعال تفجرًا .
- لقد ظهر الفارس الأسود مرة أخرى .
بخّرت العبارة كل ما تبقى فى رأس (مهاب) ، من آثار النعاس ، فهتف :
- ظهر؟!.. وأين (فارس) ؟.. هل أيقظته ؟
أجابه (سالم) فى توتر :
- لقد استيقظ وحده ، وانطلق على الفور نحو الحقول ؛ لمواجهة ذلك الفارس وحده .

قفز (مهاب) من الفراش ، والتقط حزام سيفه وغمده ، وثبتهما حول وسطه ، وهو يقول :

- وهل ارتدى حلته البيضاء ؟

هزّ (سالم) رأسه نفيًا ، وهو يجيب :

- إنه لم ينتظر ليفعل ، وإنما حمل سيفه ، وقفز على صهوة جواده ، وانطلق بأقصى سرعته نحو الحقول ، دون أن ينتظر مؤازرة .

اندفع (مهاب) خارج حجرته ، وهو يقول فى قلق :

- لابد أن نلحق به إذن يا رجل .. هيا بنا .

كان الخدم قد أسرجوا جوادين وثب فوقهما (مهاب) و (سالم) ، وصحبهما ثلاثة من رجال هذا الأخير ، وانطلق الجميع نحو الحقول ..

وفى أعماقه ، كان (مهاب) يشعر بالقلق ..

لم يكن يدرك بالضبط مدى قوة ذلك الفارس الأسود ، الذى يروى الجميع حكاياته ، وكأنه أسطورة من عالم الجن ..

وكان يخشى أن يواجه (فارس) تلك الأسطورة وحده ..

يخشى أن تحطّم تلك المواجهة الغرض من قدومهما ، وتقوى شوكة القشتالى ..

وعندما بلغ الحقول مع الرجال ، وقع بصره على ذلك المشهد الرهيب ..

مشهد (فارس) ، وقد تجرّد من سلاحه ، مواجهًا الفارس الأسود ، الذى رفع سيفه بقبضتيه ، وهوى به على عنقه .. وبلا رحمة ..

وأطلق (مهاب) شهقة قوية ، عندما هوى السيف الضخم ..

وهوى قلبه معه ..

بين قدميه ..

* * *

رأى (فارس) السيف الضخم يهوى على عنقه ، فانحنى بأقصى سرعة وليونة ، حتى انثنى جسده إلى اليمين فى شدة ، وهو يتشبّث بمعرفة (رفيق) وسمع أزيز السيف ، وهو يشقّ الهواء فوق رأسه مباشرة ، مع صوت الفارس يهتف :

- اللعنة !

ثم فجأة تلقى (فارس) ركلة عنيفة فى فخذه ، وهو ينحنى إلى أقصى اليمين ، فأفلت جسده من فوق حصانه ، وفقد توازنه ، وسقط أرضًا فى عنف ..

وأطلق (رفيق) صهيلًا احتجاجيًا ، وهو يلتفت لالتقاط صاحبه ، ولكن الفارس الأسود انقض مرة أخرى على فارسنا ، وحاول أن يهوى على عنقه بضربة سيف أخرى ، فقفز (فارس) يتفاداها فى خفة ، ولكن ذبابة السيف مزقت قميصه ولحم كتفه اليسرى ، وأسالت دمه ..

ورفع الفارس الأسود سيفه مرة أخرى ، فى نفس اللحظة التى هتف فيها (مهاب) من بعيد :

ـ تماسك يا (فارس) .. سنصل إليك الآن ..

رفع الفارس الأسود وجهه ، وتطلع عبر ذلك الشريط المستطيل فى خوذته ، إلى القادمين ، ثم قال :

ـ نجوت هذه المرة أيها المحظوظ .

ولوى عنان جواده الأسود ، وانطلق يعدو به مبتعدًا ..

وفى حزم ، انطلق (فارس) نحو جواده ، وأمسك معرفته ، ليقفز على صهوته ، هاتفًا :

ـ خلفه يا (رفيق) .

ولكن جرح كتفه أصابه بآلام رهيبة مبرحة ، جعلته يطلق آهة قوية ، ثم تقلت يده المعرفة فى حركة غريزية ، فيسقط على ظهره ..

وبلغ (مهاب) والآخرون موقعه ، فقفز (مهاب) عن صهوة جواده ، واندفع إليه ، هاتفًا :

ـ أأنت بخير يا (فارس) ؟!.. أأنت بخير ؟

صاح به (فارس) فى ألم :

ـ اتبع ذلك الوغد أولًا يا (مهاب) .. اتبعه ..

ولكن الفارس الأسود كان قد اختفى هناك ، خلف ستار الدخان الكثيف ، الذى ينبعث من المحاصيل المحترقة ، فقال (مهاب) فى مرارة :



وأطلق (رفيق) صهيلًا احتجاجيًا ، وهو يلتفت لالتقاط صاحبه ، ولكن الفارس الأسود انقض مرة أخرى على فارسنا ..

ـ لم تعد هناك فائدة يا ولدى .. لم تعد هناك فائدة .
ولكن (فارس) تملّص من يديه ، وهتف :
ـ لا .. لن يفلت أبدًا .
تشبث مرة أخرى بمعرفة (رفيق) ، وحاول أن يقفز على صهوته ، ولكن الدنيا أظلمت فجأة أمام عينيه ، وسقط ..
سقط فى بحر عميق ..
بحر من الظلمات ..

★ ★ ★

رفع (شالوم) كأسه الفضية عاليًا ، وأطلق ضحكة مجلجلة ، وهو يقول فى لهجة ظافرة :
ـ نخب فارسنا العظيم ، الذى لم يهزمه أحد .
ابتسم (ماريو) فى استخفاف ، وهو يرفع كأسه بدوره ، ثم يخفضها ليرتشف رشفة من خمر (شالوم) الخاصة ، قبل أن يقول :
ـ ولن يهزمه أحد .
هتف (شالوم) فى جذل :
ـ بالطبع .
وارتشف بدوره رشفة من كأسه ، ثم قال ضاحكًا :
ـ من الواضح أنك أصبت ذلك العربى إصابات مبرّحة ، فقد

نقلوه إلى منزل (سالم بن جسور) فاقد الوعى ، منذ يومين ، لم يستيقظ خلالهما قط .
عقد (ماريو) حاجبيه فى شك ، وهو يقول :
ـ لم تكن إصاباته بهذه الخطورة .
ابتسم (شالوم) فى خبث ، وقال :
ـ يالك من متواضع يافارس الفرسان .
ارتشف (ماريو) رشفة أخرى من كأسه ، ثم سأل (شالوم) فجأة :
ـ لماذا تعاوننا بكل هذا الحماس يا (شالوم) ؟
ارتجفت الكأس فى قبضة (شالوم) لحظة ، ثم لم يلبث أن ابتسم قائلا :
ـ ولم لا أتعاون معكم ياسيّد الفرسان .. مليكك يعلم جيدًا أن جنسى كله لا يميل إلى هؤلاء العرب ، وأننا نبغض تفوّقهم فى أى مجال ، ونعلم أن مستقبلنا معكم سيكون أفضل كثيرًا .
ابتسم (ماريو) فى سخرية ، قائلا :
ـ أهذا فقط هو السبب ؟
أجابه (شالوم) :
ـ هناك المال أيضا ، فغاراتك المستمرة على الحقول ، وحرقك للمحاصيل ، أقنع العشرات من المزارعين ببيع محاصيلهم لى ، قبل حصادها ، وبنصف ثمنها فقط ، ولا

يخفى عليك أننى سأربح الكثير ، والكثير جدًا من المال ، كما أننى سأحتكر المحاصيل هذا العام ، والقاعدة لدينا تقول : من يمتلك الطعام ، يمتلك القرار .

مطَّ (ماريو) شفتيه ، قائلًا :

ـ يا لك من داهية :

ابتسم (شالوم) ابتسامته الخبيثة ، ورفع كأسه مرة أخرى ، قائلًا :

ـ ما أنا إلا تلميذ فاشل ، فى مدرستكم أيها القشتالى .

وجرع الكأس دفعة واحدة ..

★ ★ ★

يومان كاملان قضاهما (فارس) يصارع الحمى والمرض ..

يومان كاملان فقد خلالهما الوعى ، وراح يهذى باسم الشيخ ، و (مهاب) ، و (فهد) ..

ثم تماثل للشفاء فى نهاية اليوم الثانى ، واستعاد وعيه مع منتصف ليله ، ففتح عينيه يتطلع إلى وجهى (سالم) و (مهاب) ، قبل أن يغمغم فى تهالك :

ـ يا إلهى !.. يخيل إلىّ أننى نمت يوما كاملا .

تهدج صوت (مهاب) ، وهو يقول :

ـ بل يومين يا ولدى .. حمدا لله على سلامتك .. حمدا لله .

ومسح (سالم) دمعة انحدرت من عينيه ، وهو يقول بابتسامة حنون .

ـ شفاك الله وعافاك يا مولاى .. سآمر بإعداد الطعام لك ، فلا ريب أنك تشعر بجوع شديد .

أراد (فارس) أن يعترض حياءً ، ولكنه شعر بضعفه الشديد ، وتهالكه ، فلزم الصمت ، وترك (سالم) يذهب لإعداد الطعام ، وسأل هو (مهاب) فى ضيق :

ـ هل هزمنى ذلك الفارس الأسود ؟

نظر إليه (مهاب) فى إشفاق ، وقال :

ـ لا يمكنك أن تقول هذا يا ولدى .. لقد قاتلت فى بسالة ، و ...

قاطعه (فارس) :

ـ ولكنه هزمنى .. قلها يا (مهاب) .. قلها .. الاعتراف بالحق فضيلة .

تردَّد (مهاب) لحظة ، ثم قال :

ـ لا يمكننا اعتبار ما حدث هزيمة لك يا ولدى ، ولا حتى انتصارًا له ، فلقد تواجهتما فى ظروف غير طبيعية ، وانفصلتما قبل أن ينحسم قتالكما .

قال (فارس) فى مرارة :

ـ ولكننى لم أظفر به ، وهذا يعنى أنه هزمنى .

أسرع (مهاب) يقول :
- وهو لم يظفر بك أيضا ، مما يعنى أنه لم ينتصر .
لوح (فارس) بكفه ، قائلا :
- كيف تسمى ما حدث إذن ؟
أتى من باب الحجرة صوت غاضب صارخ ، يقول :
- أسميه (حماقة) .. حماقة وسوء تصرّف .
التفت الاثنان بسرعة إلى مصدر الصوت ، وهبّ (مهاب) واقفا فى احترام ، فى حين هتف (فارس) فى دهشة :
- أنت ؟
وكان أمامهما آخر شخص يتوقعان رؤيته ..
الشيخ ..

★ ★ ★

اندفع قائد الحرس الملكى الخاص ، عبر أروقة قصر (فرناندو) و (إيزابيلا) ، فى قلب (قرطبة) ، حتى بلغ حجرة الملك ، فدقّ بابها فى لهفة واضحة ، وانتظر حتى سمع صوت (فرناندو) يقول :
- ادخل .
دفع الرجل باب الحجرة ، وتقدّم إلى منتصفها ، وانحنى أمام مليكه ، وهو يقول :
- وصل رسول من (فيجاطة) ، يحمل رسالة خاصة يامولاى .

سأله (فرناندو) فى اهتمام :
- وأين هذه الرسالة ؟
ناوله الحارس رقًا من الجلد ، فرده (فرناندو) أمام عينيه ، وطالع عباراته فى اهتمام ، ثم برقت عيناه ، وهو يقول :
- عظيم .
سأله قائد الحرس الخاص :
- أكل شىء يسير على ما يرام يا سيّدى ؟
أجابه (فرناندو) فى جذل :
- بل أفضل مما يرام .. لقد واجه فارسنا فارسهم ، واشتبك معه فى مبارزة قصيرة ، أسفرت عن هزيمة فارسهم ، وإصابته بإصابات مبرِحة .
هتف قائد الحرس الخاص فى لهفة :
- إذن فقد حانت اللحظة يا سيّدى ..
أشار إليه (فرنادو) ، قائلا :
- ليس بعد يا رجل .. إننا سننتظر المواجهة الثانية ، عندما يقتل فارسنا فارسهم ويمثّل بجثته أمامهم ، فتتحطّم روحهم المعنوية تماما ، وعندئذ تغير عليهم فرق جنودنا ، وتسقط أرضهم فى أيدينا .
وابتسم فى جذل ، وهو يستطرد :

- وبهذا تنتقل حدودنا إلى (فيجاطة) ، كخطوة أولى ، لغزو مملكة (غرناطة) كلها .

سأله القائد فى اهتمام :

- هل أصدر الأوامر لفرق الجنود بالتأهب ياسيّدى .

أومأ (فرناندو) برأسه إيجابًا ، وقال :

- نعم يا قائد الحرس .. أصدر الأوامر لفرقتين ، من أقوى فرقنا ، للاستعداد على حدود مملكة (غرناطة) .. بل اجعلها ثلاث فرق ، وأرسل إلى فارسنا الأسود ، تطلب منه استفزاز الفارس العربى مرة أخرى ، بحيث تحدث بينهما مواجهة جديدة . ومره بأن تكون هذه المواجهة حاسمة ، نهائية ، بحيث يقتل الفارس العربى فى نهايتها ، ثم يرسل إلينا على الفور ، لتبدأ فرقنا الثلاث هجومها بلا هوادة ، قبل أن تجفّ دماء الفارس العربى .

سأله قائد الحرس :

- وماذا عن (شالوم) .. ذلك التاجر اليهودى ؟

أجابه (فرناندو) :

- ستنتهى مهمته مع مصرع الفارس العربى ، وعندئذ سيكون أوّل ما تفعله فرقنا ، عند دخولها (فيجاطة) ، هو أن تقتله .

وجلجلت ضحكته داخل القصر ..
القصر الملكى .

★ ★ ★

٥ ـ الحكمـــة ..

مضت لحظـات مـن الصمت والرهبـة ، و(فـارس) و(مهاب) يتطلّعان إلى الشيخ ، حتى قطع هو حبل الصمت ، وهو يتجه إلى فراش (فارس) ؛ قائلًا :

- كأنى بك لم تتعلم شيئًا ، من كل ما لقنتك إياه .

اعتدل (فارس) جالسًا فى إعياء ، وهو يقول :

- سيّدى .. لقد بذلت ما بوسعى .

قال الشيخ فى غضب :

- بل أهدرت قواك دون طائل .

ارتبك (فارس) ، وهو يهمهم :

- كان يقتل الأبرياء ، والعزل و ...

لوّح الشيخ بكفه ، قائلًا :

- واندفعت أنت كالحمقى ، لمواجهته وقتاله ، دون أن تعلم عنه شيئًا ، ودون أن تدرس قوة خصمك ودفاعاته .. أهذا ما لقنتك إياه ؟

حاول (مهاب) أن يتدخّل ، فغمغم :

- سيّدى .. إنها فورة الشباب ، وحماسه الـ ..

قاطعه الشيخ فى صرامة :

- أهذا ما تلقنه إياه ؟

بهت (مهاب) ، وتمتم فى ارتباك :

ـ كلا .. كلا بالطبع .

ثم انتحى جانبا ، ولاذ بالصمت التام ، وأفسح المجال للشيخ ، الذى لوّح بيده ، وراح يقول فى غضب :

ـ كنت تواجه خصمًا قويًا ، يتسلّح بدرع متين ، وغموض مهيب ، ويثير فى النفوس الرعب والقلق ، والمواجهة معه لن تعنى مجرّد مواجهة بين فارسين ، وإنما ستكون رمزًا لمواجهة القشتاليين ، والتصدّى لقوى الشر والعدوان ، وعندما يتجاوز القتال نتائجه المادية ، إلى كونه رمزًا ومعنى أشمل وأعم ، فمن الضرورى أن يدرس المرء موقفه جيدًا ، قبل أن يُقدم على قتال عنيف ، قد تكون خسارته فيه هى بداية خسارة للعرب جميعهم .

سأله (فارس) فى خضوع :

ـ وماذا كان ينبغى أن أفعل ؟

أجابه الشيخ فى حزم :

ـ تدرس خصمك جيدا ، وتعرف كل مواطن قوته وضعفه ، ثم تضع خطتك فى عناية ورعاية ، وتعمل على اجتذاب خصمك ، إلى الموعد والمكان ، اللذين يمكنك أنت مواجهته فيهما ، ثم توقعه فى الفخ ، وتنزع عنه كل مقومات القوة ، وبعدها تضرب ضربتك .

أومأ (فارس) برأسه ، قائلا :

ـ فهمت .

ثم سأل الشيخ :

ـ ولكن ماذا تفعل أنت هنا ياسيّدى ؟

أجابه الشيخ فى صرامة :

ـ ليس هذا من شأنك .. لكَ مهمتك ، ولى مهمتى .

قال (فارس) فى حذر :

ـ ولكننا نسعى لهدف واحد .. أليس كذلك ؟

أجاب الشيخ فى اقتضاب :

ـ بالتأكيد .

ثم استدار يغادر الحجرة ، قائلا :

ـ لا تتسرّع فى المرة القادمة ، ولا تضرب ضربتك إلا عندما تحين اللحظة المناسبة .

غمغم (فارس) :

ـ سأفعل .

غادر الشيخ المكان ، ومضت لحظات من الصمت ، قبل أن يقول (فارس) :

ـ إنه على حق .. لقد كنت متسرعًا .

قال (مهاب) :

ـ فلنحمد الله على أن القتال لم ينته بعد .

حاول (فارس) أن ينهض من فراشه ، إلا أنه شعر بضعف شديد ، فهتف :

- الطعام يا (مهاب) .. لن يمكننى القتال ، وأنا أتضوّر جوعًا ، على هذا النحو .

كان قد عقد العزم على أن يقاتل بكل قوته هذه المرة .. وأن ينتصر بإذن الله ..

ولكن بقى سؤال حائر ، يتردّد فى ذهنه ..

ماذا يفعل الشيخ هنا ؟..

وبقى السؤال بلا جواب ..

* * *

بدا القلق على وجه (شالوم) ، وهو يدلف إلى حجرة (ماريو) ، قائلًا :

- طاب مساؤك يا سيّد الفرسان .. أخشى أننى لا أحمل أخبارًا سارة هذا الصباح .

التفت إليه (ماريو) فى هدوء ، وهو يقول :

- وما الذى تحمله بالضبط يا رجل ؟

أجابه (شالوم) :

- لقد استعاد الفارس العربى وعيه وصحته .

ابتسم (ماريو) فى استهتار ، وقال :

- أهذه هى الأخبار غير السارة ؟!

قال (شالوم) :

- ليس هذا فحسب ، ولكنهم يقولون : إن ساحة منزل (سالم بن جسور) قد تحوّلت إلى ميدان تدريب ، وأن الفارس

العربى ، الذى استعاد قوته بهذه السرعة المدهشة ، بدأ تدريباته مع الفجر .

ابتسم (ماريو) فى سخرية ، وقال :

- فليتدرّب ما شاء له أن يفعل .. لن يجعله هذا يفوقنى قط .

ثم تسلّل الجذل إلى صوته ، وهو يضيف :

- بل سيصبح قتالنا أكثر متعة .

حاول (شالوم) أن يبتسم فى شحوب ، وهو يقول :

- ليتنى أتفاءل مثلك يا سيّد الفرسان .

أجابه (ماريو) فى خشونة :

- دع عنك التفاؤل والتشاؤم أيها اليهودى ، ولتكتف أنت بجمع الأموال وتكديسها ، وسأتولى أنا مهمة القتال .

وبرقت عيناه ، مع استطراداته :

- ولن يمضى أسبوع واحد ، حتى تصبح (قيجاطة) قشتالية .

وعادت إليه ابتسامته الساخرة ..

* * *

هوى (مهاب) بسيفه على سيف (فارس) فى قوة ، والتقى السيفان بصليل قوى ، ثم افترقا ، وعادا يلتقيان أكثر عنفًا ، و (مهاب) يقول :

- لماذا التركيز على قوة الضربات هذه المرة

يا (فارس) ؟.. لقد علمتك أن المراوغة والمناورة هى الأفضل ، وليست القوة وحدها .

أجابه (فارس) ، وهو يتلقى ضربة قوية على سيفه :

- لقد انتزع ذلك الشيطان الأسود سيفى ، بضربة عنيفة ، فى قتالنا السابق يا (مهاب) ،.ولن أسمح له بفعل هذا ثانية .

عاد (مهاب) يضرب سيفه بعنف أكثر ، وهو يقول :

- ولكن ماذا ستفعل بدرعه الصلب .. إن سيفك سينكسر على صدره ، ولن يبلغ جسد خصمك قط .

صدّ (فارس) الضربة ، وشعر بعضلاته تكاد تتمزّق من قوتها ، ولكنه احتفظ بسيفه فى قبضته ، وهو يقول :

- لابد من إجباره على خلع هذا الدرع إذن .

هتف به (مهاب) ، وهو يضرب سيفه بقوة :

- وكيف تجبره على هذا ؟

أجابه (فارس) ، وهو يلهث :

- سنجد وسيلة .

ثم أشار إلى (مهاب) بالتوقّف ، وقال :

- يبدو أننى أحتاج إلى تدريب طويل ، قبل أن أتصدّى لذلك الفارس .

ابتسم (مهاب) ، وقال :

- أنت تبالغ يا بنى ، فهأنتذا تصد ضرباتى العنيفة لساعة كاملة ، دون أن تفقد سيفك مرة واحدة .

قال (فارس) فى اقتضاب :

- هذا لا يكفى .

وأعاد سيفه إلى غمده ، مستطردًا :

- هل أرسل (سالم) ، فى طلب الاشياء ، التى أحتاج إليها ؟

أتاه صوت (سالم) من خلفه ، يقول :

- ولقد وصل كل شىء .

تقدّم منهما مبتسمًا ، وخلفه اثنان من خدمه ، يحملان درعًا من الفولاذ ، تم طلاؤه باللون الأسود ، ليماثل درع الفارس تمامًا ، وجعبة تحوى عددًا من السهام ، ذات الرءوس البرّاقة ، وقوسًا متينًا ..

وفى لهفة ، التقط (فارس) جعبة السهام ،وراح يفحصها فى اهتمام ، فتحسّس (مهاب) رأس أحدها ، وسأل فى حيرة :

- ما هذه الرءوس الزجاجية ؟

أجابه (فارس) :

- إنها ليست زجاجية يا (مهاب) ، بل هى رءوس من الماس .

هتف (مهاب) فى دهشة :

- رءوس من الماس؟!. هل تستخدم سهامًا لها رءوس من الماس؟!

التقط (فارس) القوس الضخم ، وشدّ وتره القوى فى ارتياح ، ثم دسّ فيه أحد السهام ، ذات الرءوس الماسية ، وقال للخادمين :

ـ ضعا الدرع الأسود هناك .

وضع الخادمان الدرع الفولاذى حيثما أشار ، فصوّب إليه (فارس) سهمه ، وقال فى هدوء :

ـ الماس واحد من أصلب المعادن ، على وجه الأرض ، كما أخبرنى الشيخ فى صباى ، وقد يفلح فى اختراق الدرع الصلب .

أطلق سهمه نحو الدرع ، المماثل لدرع الفارس الأسود ، فارتطم به السهم فى قوة ، ثم ارتدّ عنه فى عنف ، فهتف (مهاب) :

ـ لقد فشلت الفكرة .

لم يعلّق (فارس) على قوله ، وإنما اتجه فى هدوء إلى الدرع ، وانحنى يفحصه فى اهتمام ، قبل أن يعتدل قائلًا :

ـ هذا يكفينى .

مضى (مهاب) بدوره إلى حيث الدرع ، وفحصه فى اهتمام مماثل ، وتحسس بأصابعه ذلك التجويف ، الذى صنعه السهم فيه ، دون أن يخترقه ، وقال :

ـ ولكنه لم ينجح فى اختراقه .

ابتسم (فارس) ، وهو يعود إلى موضعه ، ويضع سهمًا آخر فى وتر القوس ، قائلًا :

ـ هذا بالنسبة للسهم الأوّل .

سأله (مهاب) فى دهشة :

ـ ماذا تعنى ؟

ولكن (فارس) لم يجب ، وإنما أطلق السهم فى حزم وسرعة ، وأطلق (سالم) شهقة إعجاب ، ولم يتمالك نفسه من الهتاف :

ـ رائع .. عظيم .

كان السهم ، ذو الرأس الماسية ، قد أصاب نفس الموضع ، الذى أصابه السهم الأوّل بدقة مذهلة ، فاخترق التجويف هذه المرة ، وغاص فى الدرع الفولاذى ، فهتف (مهاب) :

ـ يا للروعة !!

هزّ (فارس) رأسه ، وقال :

ـ لا بأس بهذا .

ثم عاد يفحص الدرع الفولاذى ، قائلًا :

ـ هذا لو سمح لى ذلك الفارس ، بإطلاق سهمين متتاليين نحوه .

قال (سالم) :

ـ ليست هذه هى المشكلة فى رأيى ، بل المشكلة الحقيقية



ابتسم (فارس) ، وهو يعود إلى موضعه ،
ويضع سهمًا آخر في وتر القوس ..

هي جذب الفارس إلى الفخ ، ودفْعه إلى الزمان والمكان ، اللذين نختارهما لمواجهته .

أشار (فارس) إلى رأسه ، قائلًا :

وهذا ما أدرسه منذ ليلة أمس .

وشرد ببصره لحظات ، قبل أن يستطرد :

ـ إننا نحتاج إلى طُعم قوى .. قوى للغاية .

ثم استلّ سيفهُ مرة أخرى ، وهتف :

ـ وإلى هذا الحين ، سنعاود تدريباتنا يا عزيزى (مهاب) .

وتقارعت السيوف مرة أخرى ..

★ ★ ★

هبَّ حاكم (قيجاطة) من كرسيه ؛ لاستقبال الشيخ ، الذى دخل قاعة الحاكم فى مهابة ووقار ، فصافحه الحاكم فى حرارة ، وهو يقول :

ـ مرحبًا يا سيِّدى الوزير .. مرحبًا بك فى قصرى هذا .

أجابه الشيخ فى تواضع هادئ :

ـ لم أعد وزيرًا أيها الحاكم ، فلا تخاطبنى بهذا اللقب .

سأله الحاكم فى دهشة :

ـ كيف ؟!.. لقد أخبرونى أنك قادم من قبل مولاى الملك ، فتصوَّرت أن ..

قاطعه الشيخ :

- لا تتصور شيئًا ..

بدت الحيرة على وجه الحاكم لحظات ، ثم قال ، وهو يدعوه للجلوس إلى جواره :

- فليكن يا سيدى .. ما الذى تحمله من (غرناطة) ؟

جلس الشيخ فى وقار ، وقال :

- ما أحمله لا يدور فى (غرناطة) أيها الحاكم ، وإنما هنا ، على مقربة من موطن حكمك ، عند الحدود مع القشتاليين .

رفع الحاكم حاجبيه ، وهتف :

- عند الحدود ؟!.. ماذا يحدث عند الحدود ؟

هزّ الشيخ رأسه فى أسف ، وقال :

- يبدو أن جنودك لا يتميزون باليقظة أيها الحاكم ، أو أنهم يفتقرون إلى الأمانة والإخلاص ، وهذا بالغ الخطورة ، بالنسبة إلى بلدة متاخمة للحدود مع خصومنا ، فى هذه الأيام .

انتفض الحاكم ، وهو يقول :

- جنودى ماذا ؟!.. إنك تلقى اتهامات بالغة الخطورة أيها الشيخ ، وكرامتى تأبى سماع ما تقول ، و ...

قاطعه الشيخ فى حزم :

- هناك ثلاث فرق قشتالية ، تحتشد عند الحدود .. ما معلوماتك عن هذا أيها الحاكم ؟

لتنتفض الحاكم مرة أخرى فى ذهول ، وردد فى جزع :

- ثلاث فرق ؟!.. عند الحدود ؟

أجابه الشيخ :

- نعم يا سيادة الحاكم .. هذه الفرق تحتشد استعدادًا لهجوم مباغت ، عندما تأتى إشارة البدء من موطن حكمك .

بلغ ذهول الحاكم ذروته ، وهو يهتف :

- من هنا ؟

ثم هبّ من مقعده ، صائحًا :

- من أين جئت بهذه المعلومات أيها الشيخ ؟

أجابه الشيخ فى هدوء :

- لدى أساليبى الخاصة .

هتف الحاكم فى غضب :

- من الضرورى أن أعرف .

قال الشيخ :

- المهم هو أن تتخذ القرار ، أما بالنسبة للتأكد ، فيمكنك أن ترسل فرقة استطلاع .. هذا شأنك .

صمت الحاكم لحظات ، وهو يتطلع إلى الشيخ ، ثم سأله فى اهتمام بالغ :

- ومن سيعطى إشارة البدء هذه ؟

أجابه الشيخ :

- الفارس .. الفارس الأسود .
انعقد حاجبا الحاكم فى شدة ، وكأنما يدرس الأمر كله فى اهتمام ، ثم لم يلبث أن قال فى حدة :
- أواثق أنت من قولك هذا أيها الشيخ ؟
أجابه الشيخ فى وقار :
- تمام الثقة أيها الحاكم .
بقى الحاكم لحظات ، يتطلع إليه فى حذر ، ثم قال فى حزم :
- فليكن .. سأتخذ ما يلزم من الإجراءات .
سأله الشيخ :
- ماذا ستفعل ؟
أجابه فى صرامة :
- سأحشد كل فرق الجند ، فى مواجهة القشتاليين عند الحدود ، و ..
قاطعه الشيخ :
- خطأ .
تطلع إليه الحاكم فى دهشة ، قبل أن يقول فى عصبية :
- وماذا تقترح أنت ؟
ابتسم الشيخ ابتسامة رصينة ، وهو يقول :
- أقترح أن نترك للقشتاليين تحركاتهم ، ونحاول الإفادة منها إلى أقصى حد .
سأله الحاكم ، وقد تسلل الاهتمام إلى صوته كثيرًا :

- كيف ؟
أجابه الشيخ فى هدوء :
- سأخبرك كيف .
وراح يشرح ما لديه ..

★ ★ ★

ارتسم مزيج من القلق والتوتر ، على وجه اليهودى (شالوم) ، وهو يعبر تلك الأزقة الضيقة ، فى أبعد أحياء المدينة ، وراح يتلفت حوله فى خوف ، عندما اقترب من باب خشبى ضخم ، طرقه فى حذر ، وانتظر لحظات ، حتى انفتح الباب ، وظهر من خلفه عملاق ضخم الجثة ، غليظ الملامح ، رمق اليهودى بنظرة صارمة ، وهو يقول فى خشونة :
- ماذا تريد ؟
ارتجف اليهودى ، وهو يجيب :
- أريد مقابلة (شيلوك) .
رمقه الضخم بنظرة شرسة طويلة ، ارتجفت لها الدماء فى عروقه ، قبل أن يفسح الطريق أمامه ، قائلا بخشونته :
- ادخل .
عبر اليهودى الباب إلى ساحة ضخمة ، تنتهى بباب خشبى آخر ، سبقه إليه الضخم ، وفتحه على مصراعيه ، وأشار إليه بالدخول ، إلى قاعة شبه مظلمة ، جلس داخلها عدد من

الرجال الأشداء ، لم يكد أحدهم يلمح اليهودى ، حتى هب واقفا ، وفرد ذراعيه القويتين عن آخرهما ، وهو يهتف :

- (شالوم) .. عمى (شالوم) .. أى رياح شريرة ألقت بك هنا ؟

صافحه (شالوم) بأصابع مرتجفة ، وقال :

- أهلا يا ابن أخى العزيز .. كيف حالك ؟

قهقه (شيلوك) ضاحكا ، وقال :

- واعماه .. لا داعى لإضاعة الوقت يا رجل .. إنك لم تأت إلى هنا لتسأل عن أحوالى .. هيا .. أخبرنى ماذا تريد ، وكم ستدفع هذه المرة .

ازدرد (شالوم) لعابه ، وقال :

- حسنا يا (شيلوك) .. حسنا .. هل سمعت عن ذلك الفارس ، الذى حضر إلى منزل (سالم) ، منذ ثلاثة أيام ؟

أجابه (شيلوك) فى خبث :

- أتقصد ذلك الذى قاتل الفارس الأسود ، وبقى على قيد الحياة ؟.. نعم يا عماه .. إننى أعرفه جيدا ، وأحد رجالى يراقب تدريباته منذ الفجر .

عضّ اليهودى شفتيه ، وقال :

- هذه هى المشكلة ، فالفارس العربى يتدرب فى حماس ، فى حين يقضى القشتالى معظم أوقاته نائما ، أو محتسيا

الخمر ، فى صحبة حسناء ، وهذا يعنى أن المواجهة التالية لن تأتى لصالح القشتالى أبدا .

سأله (شيلوك) :

- وماذا تطلب يا عماه ؟

أجابه (شالوم) فى حذر :

- أريد رأس الفارس العربى .

أطلق (شيلوك) ضحكة قصيرة ، وقال :

- فليكن يا عماه .. كم ستدفع مقابل هذا ؟

بدا الضيق على وجه اليهودى ، وهو يقول :

- أنت ابن أخى يا (شيلوك) يا ولدى ، و ...

قاطعه (شيلوك) فى خشونة :

- كم ستدفع .

ازدرد اليهودى لعابه ، وقال :

- خمسون قطعة ذهبية .

قهقه (شيلوك) ضاحكًا ، وقال :

- يا لك من شحيح قذر يا عماه !! .. هذه المهمة تحتاج إلى عشرة رجال على الأقل ، وكل منهم يتقاضى مائة قطعة ذهبية .

صاح اليهودى فى هلع :

- ألف قطعة ذهبية ؟!.. أتطلب ألف قطعة ذهبية يا ابن أخى ؟

أجابه (شيلوك) فى خشونة :

- بل أكثر يا عماه ، فلم أذكر نصيبى الشخصى بعد ، ثم أن اختفاء ذلك العربى من الساحة يفسح الطريق أمام فارسك الأسود أكثر وأكثر ، ويدفع عددا أكبر من المزارعين إلى بيع محصولاتهم بنصف الثمن ، و ...

قاطعه (شالوم) ، وهو يلوّح بكفه ، هاتفًا :

- حسنًا .. حسنًا .. سأدفع كل ما تطلبه ، ولكن بشرط واحد ..

وضغط أسنانه فى مقت ، وهو يستطرد :

- أن يلقى ذلك العربى مصرعه .. وقبل الفجر .

وابتسم (شيلوك) فى ثقة .

* * *



٦ - القتل ..

كانت الشمس قد بدأت رحلتها ، من كبد السماء إلى المغرب ، عندما عاد الشيخ إلى منزل (سالم) ، وتطلع إلى (فارس) ، الذى لم ينته من تدريباته بعد ، وهو يصوّب سهامه ، ذات الرءوس الماسية ، إلى الدرع الأسود ، ثم سأل (مهاب) :

- ما الذى يفعله الفتى ؟

أجابه (مهاب) فى احترام :

- إنه يبحث عن وسيلة لاختراق درع الفارس الأسود ، وهو يستخدم سهامًا ذات رءوس ماسية ، ويقول : إنك أخبرته أن الماس أصلب معادن الأرض .

هزّ الشيخ رأسه فى وقار ، وقال :

- الماس ليس أصلب معادن الأرض ، ولكنه أكثرها قدرة ، على خدش غيره من السطوح(*) .

لم يفهم (مهاب) ما يعنيه الشيخ ، فسأله :

- أيعنى هذا أنه يستطيع اختراق الدرع ؟

(*) يطلق على هذه السمة اسم (الصلادة)، فالصلابة هى قدرة المادة على كسر غيرها من المواد ، أما الصلادة ، فهى قدرتها على خدش غيرها من السطوح ، وفى هذا الشأن يكون الزجاج أقل صلابة من الفولاذ ، ولكنه أكثر صلادة منه .

أجابه الشيخ :

ـ هذا يتوقَّف على وسيلة استخدامه .

وتابع ببصره (فارس) ، وهو يطلق بسهامه على الدرع ، قبل أن يستطرد :

ـ ولكن ليس بوساطة القوس والنشاب بالتأكيد .

سأله (مهاب) فى لهفة :

ـ كيف إذن ؟

قطع (فارس) فرصة حصول (مهاب) على الجواب ، وهو يتقدَّم نحوهما ، هاتفًا :

ـ مرحبًا بعودتك يا سيِّدى .. هل أثمرت رحلتك ؟

أجابه الشيخ فى هدوء :

ـ أثمرت كثيرًا .. ماذا عن تدريباتك أنت ؟

قال (فارس) ، فى لهجة تغلب عليها الثقة :

ـ إنها تسير بنجاح كبير ، فقد اعتاد (رفيق) مواجهة الدرع الأسود ، واعتدت أنا أيضًا التعامل معه ، وسهامى يمكنها اختراقه ، لو أصاب كل سهمين بقعة واحدة منه ، و ...

قاطعه الشيخ .

ـ أيكفى هذا ؟

صمت (فارس) لحظة ، ثم هزَّ رأسه ، قائلًا :

ـ لا .. لا يكفى .

واضاف فى سرعة :

ـ ولكننى أرسلت رجال (سالم) ؛ لاستطلاع بعض الأمور ، وجمع الكثير من المعلومات ، وما عادوا به سيمنحنى الكثير ، مما أحتاج إليه بإذن الله .

تمتم الشيخ :

ـ عظيم .

ثم شد هامته ، مستطردًا :

ـ الآن يمكننى بدء رحلة العودة .

هتف (فارس) فى دهشة :

ـ العودة ؟!.. هل ستتركنا وحدنا وتعود يا سيِّدى ؟

أجابه الشيخ فى صرامة :

ـ لقد كنتما وحدكما بالفعل .

وتمتم (مهاب) :

ـ هذا صحيح .

تدخَّل (سالم) ، قائلًا :

ـ ولكنك لن تسافر ، فى هذا الوقت المتأخر .. ابق حتى الصباح على الأقل .

أجابه الشيخ :

ـ لا وقت لهذا يا ولدى .. مولاى الملك ينتظر ما لدى من أخبار ، بفارغ الصبر ، وتأخرى فى العودة يثير قلقه كثيرًا .

قال (سالم) :

ـ إننى أقدِّر هذا .

ثم أضاف فى حزم :

ـ ولكن سيصحبك بعض رجالى ، حتى حدود (غرناطة) .

همَّ الشيخ بالاعتراض ، ولكن (سالم) قال فى إصرار :

ـ ولا تحاول مناقشة هذا .

ابتسم الشيخ ، وقال

ـ فليكن ياولدى .. ستسعدنى صحبتهم كثيرًا .

صافحه الجميع فى حرارة ، وعندما جاء دور (فارس) ، قال فى أسف :

ـ كنت أتمنى أن تبقى ، لتشهد هزيمة ذلك الشيطان الأسود على الأقل .

ملأ الشيخ عينيه بصورته ، قبل أن يقول :

ـ ثقتك هذه تكفينى ياولدى .

وربَت على كتفه فى حرارة ، ثم تركه يعاونه على امتطاء جواده ، ولوّح بكفه ، قائلًا بابتسامة هادئة وقور :

ـ سنلتقى فى مخيمنا بإذن الله .

وبدأ رحلةَ عودته إلى (غرناطة) ، وتابعه الجميع بأبصارهم ، وهو يسير وسط حرَاسه ، حتى اختفى بين الدروب ، فقال (فارس) فى حزم :

ـ والآن هيا نعود إلى تدريباتنا .

وامتشق حسامه ..

وصلصلت السيوف مرة أخرى ..

★ ★ ★

وقفت (غالا) أمام الملكة (إيزابيلا) ترتجف ، محاولة تحاشى تلك النظرات الغاضبة ، التى تطلّ من عينى الملكة ، قبل أن تقول تلك الأخيرة فى صرامة :

ـ ما الذى ذهب بك إلى مخدع الملك ؟

أجابتها (غالا) فى ارتباك شديد :

ـ صدقينى يا مولاتى .. لست أرغب أبدًا فى الذهاب إلى هناك ، ولكن كيف لى أن أعصى أوامر مولاى .

صاحت بها (إيزابيلا) :

ـ قولى له : إن هذا يغضبنى .

تردَّدت (غالا) لحظة ، ثم قالت فى خفوت :

ـ إنه لا يبالى بهذا .

احتقن وجه الملكة ، وارتسم عليه مزيج من السخط والغضب ، ثم لم تلبث أن تمالكت نفسها ، وقالت فى حزم ، محاولة تجاهل الأمر :

ـ وماذا عن ذلك الفارس .. (ماريو) ؟.. أترغبين فى الزواج منه بالفعل ؟

بدت المرارة واضحة فى صوت (غالا) ، وهى تقول :

- مولاى هو الذى يرغب فى هذا .

سألتها (إيزابيلا) فى حدة :

- وماذا عن رغبتك أنت ؟

كادت كلماتها تبكى ، وهى تجيب :

- وكيف لى أن أعترض ، على أوامر مولاى ؟

تطلّعت إليها (إيزابيلا) لحظة فى صمت ، ثم قالت :

- أتعلمين يا (غالا) .. أنا أيضًا أميل إلى زواجك من (ماريو) .

هتفت (غالا) كالمصدومة :

- مولاتى .. تصوّرت أنك ..

قاطعتها (إيزابيلا) فى صرامة :

- هذا يبعدك عن (فرناندو) على الأقل .

أدركت (غالا) أنها صارت السلاح الأمثل ، الذى يضرب به الحاكمان بعضهما البعض ، فخفضت عينيها ، متمتمة فى استسلام :

- كما تأمر مولاتى .

ولكنها فى أعماقها ، كانت تشعر بكراهية ومقت لا حد لهما ..

وكانت هذه الكراهية تستعد للانفجار ..

وبشدة ..

★ ★ ★

لم تكد الشمس تختفى فى الأفق ، حتى شعر (فارس) بكل عضلة فى جسده تئن فى ألم وإرهاق ، بعد تدريب شاق ، استغرق نهاره كله ، وهتف به (مهاب) ، وهو يلقى سيفه جانبًا :

- رباه .. لم أعد أحتمل .

ابتسم (سالم) ، فى مزيج من الإعجاب والإشفاق ، وهو يقول :

- إنكما تتقاتلان طيلة النهار .

جفّف (فارس) عرقه الغزير ، وقال :

- هذا حتمى يا عماد ، فوقتنا قصير كما تعلم .

ثم سأله فى اهتمام :

- هل عاد رجالك بالمعلومات المطلوبة ؟

أومأ (سالم) برأسه إيجابًا ، وقال :

- نعم .. وسنناقش كل شىء حول مائدة الطعام .

لم تمض نصف الساعة ، حتى جمعتهم مائدة الطعام ، وقال (سالم) :

- يقول الرجال : إن (شالوم) يستضيف فى منزله ضيفًا مجهولًا ، لا يظهر إلا لمامًا ، ولا أحد يعرف من هو ، ولا السبب الذى جاء من أجله ، ويدّعى (شالوم) أنه ابن عم له من (حيفا) ، جاء لزيارته ، وإقامة علاقات تجارية معه .

قال (مهاب) مستنكرًا :

- أيقطع يهودى كل هذه المسافة ، من أجل زيارة ابن عم له ؟

أما (فارس) ، فقال فى اهتمام :

- أراهن أن ابن العم هذا ضخم الجثة ، متين البنيان ، يمتطى جوادًا أسود .. أليس كذلك ؟

ابتسم (سالم) ، وقال :

- هذا صحيح .. كما أنه يتحدث بلغة القشتاليين ، عندما يدور الحديث بينه وبين (شالوم) ، فقد تسلل أحد رجالى إلى حيث حجرة الضيف ، وأرهف سمعه للحديث جيدًا .

قال (فارس) فى انفعال :

- إذن فهو ضالتنا .

هتف (مهاب) :

- بالتأكيد .

ثم سأل (سالم) :

- وماذا عن الحاكم ، ورئيس الجند والشرطة ؟

أجابه (سالم) :

- علاقة الحاكم بـ(شالوم) علاقة ضعيفة ، تقتصر على تبادل بعض الهدايا ، أما رئيس الجند ، فهو يزور (شالوم) كثيرًا ، ومن الواضح أن العلاقات بينهما قوية أكثر مما ينبغى .

قال (مهاب) فى اهتمام :

- أتظن رئيس الجند خائنا ، ينقل إليه المعلومات ، عن تحرك الجند وفرق الشرطة ؟

هز (فارس) رأسه نفيًا ، وقال :

- لا أظن هذا أبدا .. ليس كنوع من التعصب لعروبتى ، وإنما لأسباب منطقية تماما ، فلو أن رئيس الجند خائن ، لما احتاج القشتاليون إلى كل هذه الخطة ، لبث الرعب فى (قيجاطة) ، وتمهيد الطريق لاحتلالها .. الأرجح أن الرجل يولى (شالوم) هذا ثقة كبيرة ، مما لا يمنعه من أن يتحدث أمامه عن تحركات الجنود والفرق ، وهذا خطأ كبير ، ولكنه لا يبلغ مرتبة الخيانة .

مضت لحظة من الصمت ، بعد عبارة (فارس) الأخيرة ، قبل أن يقول (سالم) :

- هل تحتاج إلى معلومات أخرى ؟

هز (فارس) رأسه نفيًا ، وقال :

- بل أحتاج إلى أحد رجالك ، للقيام بمهمة خاصة .

سأله فى اهتمام .

- أية مهمة ؟

أجابه فى هدوء :

- لقد أبلغنى (مهاب) أن الشيخ لا يثق كثيرًا فى سهامى ، ذات الرءوس الماسية ؛ لذا فأنا أحتاج إلى سلاح آخر ، يقضى

على فاعلية درع الفارس الأسود ، الذى يعجز سيفى عن اختراقه .

سأله (مهاب) فى اهتمام :

- وما هو هذا السلاح ؟

قال (فارس) فى غموض :

- ستعرفه عندما يحضره أحد رجال (سالم) ياصديقى ، من رجل يقيم فى مدينة (بسطة) القريبة ، يقال له : (الدمشقى) .

ثم التفت إلى (سالم) ، قائلا :

- أيمكن إرسال أحد رجالك الآن ؟

أجابه (سالم) فى حماس :

- على الفور .

هب ليرسل أحد رجاله إلى (الدمشقى) ، فى حين سأل (مهاب) (فارس) مرة أخرى فى فضول :

- ما هذا السلاح بالضبط ؟

لوّح (فارس) بكفه ، قائلا :

- إنه سائل بسيط ياصديقى .. مجرّد سائل ، يُجيد (الدمشقى) صنعه

قال (مهاب) فى دهشة :

- أى سائل هذا ، الذى يمكنه هزيمة درع فولاذى قوى ؟

عاد (فارس) يبتسم فى غموض ، وهو يقول :

- سترى يا صديقى .. سترى .

ثم استطرد فى سرعة :

- أظن وقت النوم قد حان ، فالأجساد المتعبة لا تقوى على القتال جيدا .

نهض (مهاب) يتثاءب ، قائلا :

- صدقت .

أوى كل منهما إلى فراشة ، وران صمت هادئ على المنزل كله ، إلا من وقع أقدام رجال الحراسة ، وهم يسيرون جيئة وذهابا ، فى ساحتى المنزل ، الأمامية والخلفية .

ثم انقطع وقع الأقدام هذه بغتة ، وصدرت جلبة خافتة مكتومة ، عاد الصمت بعدها يسود تماما ..

وفى صمت وخفوت ، تسللت أقدام عشرة رجال ، عبر الساحتين ، إلى المنزل ، وانطبعت آثار دماء الحرّاس على أرض المنزل ، ثم توقف بعض الرجال عند باب حجرة (فارس) ، وتوقف البعض الآخر عند باب حجرة (مهاب) ، فى حين وقف (شيلوك) وأحد رجاله ، أمام باب حجرة (سالم) ، وأشار (شيلوك) إلى رجاله العشرة ، وهمس :

- الآن يا رجال ..

وبهجمة رجل واحد ، اقتحم الرجال العشرة الحجرات الثلاث ، وهم يطلقون صرخات قوية مخيفة ، تجمّد الدماء فى العروق ..

وقفز (مهاب) من فراشه فزعًا ، ورأى الرجال الخمسة ينقضون عليه ، فقفز إلى سيفه ، والتقطه فى حركة سريعة ، ليصدّ ضربة سيف غادرة ، ثم تراجع صارخًا :

- خيانة .. خيانة .

أما (فارس) ، فقد بوغت بالهجوم ، وهبّ من فراشه بدوره ، وهمّ بالتقاط سيفه ، ولكن ضربة من قدم أحد الرجال أطاحت بالسيف بعيدًا ، فى حين اندفعت السيوف الخمسة نحو (فارس) ، الذى قفز جانبًا ، وكال لأقرب الرجال إليه لكمة كالقنبلة ، ثم اختطف سيفه ، وراح يقاتل به الرجال الأربعة الآخرين فى استماتة ، وبلغته صرخة (مهاب) ، ثم صليل السيوف فى حجرة (سالم) ، وتكالب عليه الرجال الأربعة ، فى نفس اللحظة التى تلقّى فيها (مهاب) ضربة سيف فى ساعده ، أسقطت سيفه ، فانقضّ عليه الرجال الخمسة ، وتكالبوا عليه ، وكبّلوا ساعديه وقدميه ، وهو يواصل صراخه :

- خيانة .. خيانة .

دفعه الرجال خارج حجرته ، والتقوا فى الممر الخارجى بـ(شيلوك) وزميله ، وهما يدفعان (سالم) إلى الخارج ، وهتف (شيلوك) فى سخرية :

- هيا .. بقى الثالث .. احضروهم إلى الساحة الخلفية .

تكالب الباقون على (فارس) ، الذى قاتل فى شراسة ، وأردى أحدهم قتيلًا ، وأصاب الثانى إصابة مميتة ..

ولكن ، الكثرة تغلب الشجاعة ، كما يقولون ..

لقد سقط الرجال الثلاثة ، ودفعهم (شيلوك) ورجاله إلى الساحة الخلفية ، وقهقه (شيلوك) ضاحكًا فى ظفر ، وحمل سيف (فارس) الفضى يلوّح به فى الهواء ، قائلًا :

- انتهت اللعبة يارجال ، وربح (شيلوك) وعصابته كالمعتاد .

قال أحد الرجال ، فى لهجة أقرب إلى الزمجرة :

- لقد فقدنا (حاليم) و(بنجامان) .. قتلهما ذلك الشاب .

هتف (شيلوك) :

- سينال جزاءه إذن .. سيكون أوّل من يطير رأسه .

ثم أشار إلى رجاله . مستطردًا :

- هيا .. احضروه إلى هنا .

جذب الرجال (فارس) فى عنف ، وهو يهتف فى غضب :

- أيها الأوغاد الحقراء .

أما (مهاب) ، فراح يصرخ :

- لا .. اتركوا (فارس) .. اتركوه .

صاح (فارس) فى صرامة :

- لا تتضرّع إليهم يا (مهاب) .

دفع (شيلوك) (فارس) أمامه فى عنف ، وجعل رجاله يجبرونه على السقوط على ركبتيه ، هاتفًا :

ـ نعم لا تجعله يتضرَّع إلينا يا فتى ، فلن يفيدك هذا كثيرًا

ثم رفع سيفه ، وقال فى سخرية :

ـ وداعًا يا فارس العرب .

وهوى سيفه على عنق الفارس ..

(فارس الأندلس) .

* * *

٧ ـ فى ظلام الليل ..

أطلقت الأميرة (جميلة) شهقة فزع مكتومة ، وهى تهب من رقادها ، وراح جسدها ينتفض فى قوة ، وهى تُطلق شهقات متتالية ، وتضع يدها على قلبها ، فأسرعت وصيفتها تشعل المصابيح ، وتهرع إليها هاتفة فى جزع :

ـ ماذا حدث يا مولاتى ؟.. ماذا حدث ؟

أجابتها الأميرة ، وهى تلهث من فرط الانفعال :

ـ كابوس .. كابوس رهيب .

جلست الوصيفة على طرف الفراش ، وقالت :

ـ أى كابوس هذا يا أميرتى ؟

أجابتها الأميرة ، وجسدها ينتفض فى شدة :

ـ (فارس) .. رأيت (فارس) .

سألتها الوصيفة فى حيرة :

ـ أى (فارس) هذا ؟

قالت الأميرة ، وصوتها يتهدَّج :

ـ (فارس) .. ذلك الشاب الذى أنقذنى من الأسر ، فى (قرطبة)(*) .

تراجعت الوصيفة ، قائلة فى خبث :

(*) راجع قصة (الأميرة الأسيرة) .. المغامرة رقم (٢)



أطلقت الأميرة (جميلة) شهقة فزع مكتومة ، وهى تهبّ من رقادها ، وراح جسدها ينتفض فى قوة ، وهى تُطلق شهقات متتالية ..

ـ آه .. ذلك الوسيم .. وهل تعدّ رؤيته فى الأحلام كابوسًا يا مولاتى ؟

أجابتها الأميرة ، وعيناها تترقرقان بالدمع :

ـ رأيته يواجه خطرًا رهيبًا .

سألتها فى اهتمام :

ـ أى خطر هذا يا مولاتى ؟

وضعت كفها على صدرها مرة أخرى ، وكأنما تحاول تخفيض ضربات قلبها العنيفة ، وهى تقول :

ـ رأيته راكعًا على قدميه ، فى ساحة إعدام ، والجلاد يقف عند رأسه ، مخفيًا وجهه بقناع أسود سميك ، ورافعًا بلطته ، استعدادًا للهبوط بها على عنق (فارس) ، و ... و ...

لم تستطع إكمال عبارتها ، فشهقت فى قوة ، وأخفت وجهها بكفيها ، وأجهشت بالبكاء ، فربّتت الوصيفة على كتفيها فى حنان وإشفاق ، وقالت :

ـ إنه قلقك عليه فحسب ، هو الذى دفع تلك الأحلام إلى رأسك ، فأنت تعلمين أنه الآن يواجه ذلك الفارس الأسود ، فى (قيجاطة) ، وذلك الكابوس يعكس خوفك عليه ، وحتى الجلاد ، ذو القناع الأسود ، ما هو إلا رمز للفارس .

استمعت إليها الأميرة فى توتر ، ثم هزّت رأسها ، قائلة :

ـ لا ليس هذا هو التفسير الصحيح .. أنت تعلمين أن أحلامى غالبا ما تكون صحيحة ، وأنا أشعر بالفارق بين الأحلام

العادية ، وتلك التى يشعر بها قلبى ، فتنتقل إلى رأسى .. هذا الحلم حقيقى .. أنا واثقة من أن (فارس) يواجه الآن خطرًا داهمًا .

ربتت الوصيفة على كتفيها مرة أخرى ، وهى تقول :

- من الواضح أن لـ(فارس) هذا مكانة خاصة فى قلبك يا أميرتى .

تخضب وجه الأميرة بحمرة الخجل ، وهى تئن .

- أية مكانة تقصدين ؟

مالت نحوها الوصيفة ، وهمست :

- تلك المكانة ، التى تجعل قلبك يشعر به عن بعد .

وخفت صوتها أكثر ، وهى تهمس مستطردة :

- الحب .

خفق قلب الأميرة مرة أخرى فى عنف ، وأخجلها أن تطرق وصيفتها هذه النقطة ، بكل هذا الوضوح ، ولكن قلبها لم يلبث أن تناسى هذا ، إزاء شعوره بأن (فارس) يواجه الخطر .. خطر الموت ..

* * *

ارتفع سيف (شيلوك) ، وهوى على عنق (فارس) ، وأغلق (سالم) عينيه فى ألم ، واتسعت عينا (مهاب) فى ذعر ، وانطلقت صيحة الألم ..

وتجمد الموقف لحظة ..

لم تكن صرخة الألم قد انطلقت من حلق (فارس) ، وإنما من بين شفتى (شيلوك) نفسه ، الذى اخترق يده سهم قوى ، انتزع منها سيفه ، وألقاه بعيدًا ، قبل أن يقطع عنق (فارس) ..

والتفتت العيون كلها إلى تلك البقعة ، التى انطلق منها السهم ..

إلى سطح منزل (سالم) ..

وهناك ، فوق سطح المنزل ، وأمام قرص القمر المستدير ، الذى بدا فى تلك الليلة بالذات ، أكبر وأضخم من حجمه الطبيعى ، بدا ذلك الظل الأسود القوى ..

ظل عملاق أسود ، مفتول العضلات ، متين البنيان ، يقف فى شموخ واعتداد ، ممسكًا قوس (فارس) القوى ، وجعبته الكبيرة ..

وبكل اللهفة فى أعماقه ، هتف (مهاب) :

- (فهد) ؟!..

ومع آخر حروف كلماته ، قفز الزنجى من فوق السطح ، وهبط على قدميه ، فى مواجهة (شيلوك) ورجاله ، فصاح هذا الأخير فى غضب :

- اقتلوا هذا الوغد .. اقتلوه يا رجال .

استلّ رجاله سيوفهم ، واتجهوا نحو الزنجى ، الذى ظلّ جامدًا صامتًا ، يخفى ضوء القمر الآتى من خلفه ، ملامحه ، ويبعث فيه رهبة ومهابة ..

ثم امتشق الزنجى حسامه بغتة ، وانطلقت من حلقه صرخة قوية ، رددت المدينة كلها صداها ، وارتجفت لها الأجنة ، فى بطون أمهاتهم ..

ثم انقضّ (فهد) ..

ومع انقضاضته ، هبّ (فارس) ، واقفا ، وهو يهتف :

- مرحى يا رجال .. لقد وصل ملاكنا الحارس .

قفز يركل ذلك الرجل ، الذى كان يضع سيفه على عنقه ، ثم التقط السيف ، واستدار يواجه الرجال الثلاثة الآخرين ، الذين يحرسون (مهاب) و (سالم) ، ولمح من طرف عينه سيف (فهد) ، وهو يهوى على عنق أحد الرجال ، ثم ينقضّ على صدر آخر ، ويغوص فى معدة ثالث ..

إعصار أسود رهيب ، أصاب (شيلوك) وعصابته ..

وتساقط اليهود كالذباب ، فألقى (شيلوك) ورجاله الثلاثة ، الذين تبقوا على قيد الحياة أسلحتهم ، وصاح (شيلوك) فى انهيار :

- الرحمة .. الرحمة .

توقف (فهد) عن القتال على الفور ، وألقى نظرة جامدة على قتلاه ، فى حين هتف (سالم) مبهورًا :

- يا إلهى .. من هذا يا (مهاب) ؟.. أهو (فهد) حقًا ؟.. أهو ذلك الزنجى الصغير ، الذى تبناه مولاى ، و ...

قاطعه (مهاب) فى حزم صارم :

- رويدك .. لم يحن وقت كشف هذا بعد .

أما (فارس) ، فنقل بصره فى دهشة ، بين (سالم) و (فهد) ، قبل أن يهتف فى انفعال :

- هل تبناه أبى ؟!.. أيعنى هذا أن (فهد) أخى ؟.. أخى بالتبنى .

تبادل (مهاب) و (سالم) نظرة صامتة ، ثم قال (مهاب) فى حزم :

- لا تقلق نفسك بهذه الأمور يا (فارس) .. إنها ..

قاطعه (فارس) ، وهو يندفع نحو (فهد) هاتفًا :

- (فهد) .. أأنت أخى حقًا يا (فهد) ؟.. يا إلهى !.. كم سيسعدنى هذا .. أأنت أخى بالتبنى يا (فهد) ؟

لم يجب الزنجى ..

بل لم ينطق بحرف واحد ..

فقط ظلّ لحظة يتطلع إلى عينى (فارس) فى صمت ، وعيناه تحملان امتنانًا عميقًا ، ثم لاحت على وجهه ابتسامة ، لم تلبث أن تلاشت فى سرعة ، وهو يرفع يده ، ليربّت بها على كتف (فارس) ، ثم استدار ، وانطلق نحو بوّابة الساحة فى خطوات سريعة ، و (فارس) يهتف به :

ـ أجبنى يا (فهد) .. أجب ..

ولكن الزنجى اختفى خارج الساحة ، بنفس السرعة التى ظهر بها ، وهتف (فارس) خلفه :

ـ (فهد) ..

ثم خفض عينيه ، مستطردًا فى أسف :

ـ نسيت أن أشكرك .

اتجه إليه (مهاب) ، ووضع يده على كتفه بدوره ، وقال :

ـ إنه لا ينتظر الشكر أبدًا يا صديقى .

هتف (سالم) مبهورًا :

ـ وهذا أروع ما فيه .

التفت إليه (مهاب) لحظة ، ثم انحنى يلتقط أحد السيوف من الأرض ، ووضعه على عنق (شيلوك) ، قائلًا :

ـ ما رأيك لو عاملتك الآن ، بمثل ما أردت معاملتنا به ؟

كاد (شيلوك) يبكى ، وهو يمسك موضع إصابة ساعده ، قائلًا :

ـ الرحمة .. الرحمة .

قال (فارس) فى صرامة :

ـ وهل يستحق مثلك الرحمة ؟

بكى اليهودى بالفعل ، وهو يقول :

ـ ليست هناك أحقاد شخصية بيننا ، ولكن بعضهم استأجرنى لقتلكم .

سأله (مهاب) فى صوت قاس :

ـ ومن ذلك الوغد ، الذى فعل هذا ؟

أجابه فى انهيار :

ـ عمى (شالوم) .. عمى هو الذى دفع ألف ومائتى قطعة ذهبية ، مقابل أعناقكم .. أقسم لك أن هذا ما حدث بالفعل .

قال (فارس) فى غضب :

ـ إذن فذلك اليهودى الوغد أراد قتلنا .

غمغم (سالم) :

ـ أدركت هذا منذ البداية .

تبادل الثلاثة نظرات صامتة ، ثم قال (فارس) :

ـ ماذا نفعل ، بشأن هؤلاء الأوغاد الأربعة ؟

قال (سالم) فى صرامة :

ـ أنا الأحق بهم .. فقد قتلوا أربعة من رجالى ، وانتهكوا حرمة منزلى ، وكادوا يقتلون ضيفى .

سأله (مهاب) :

ـ ماذا ستفعل بهم .. هل تقتلهم ؟

أجابه (سالم) :

ـ بل سأحتفظ بهم فى القبو ، حتى تنتهى مهمتنا ، ويتم القضاء على الفارس الأسود ، وبعدها سيكون للشرطة شأن معهم .

قال (فارس) فى هدوء :

- نعم .. هذا هو الحل الأمثل .. سنحتفظ بهم ، حتى تحين اللحظة المناسبة .

سأله (مهاب) :

- ومتى تحين هذه اللحظة المناسبة ؟

صمت (فارس) لحظة ، ثم أجاب فى اقتضاب حازم :

- غدًا .. غدًا تحين اللحظة ، وإن غدًا لناظره قريب ..

* * *

لم يغمض لـ(شالوم) جفن طيلة الليل ، وهو ينتقل من نافذة إلى أخرى ، فى انتظار عودة (شيلوك) ، حتى مطلع الفجر ، وامتلأت نفسه بقدر هائل من التوتر والقلق ، عندما أشرقت الشمس ، دون أن يأتى (شيلوك) ، ووجد (شالوم) نفسه يردد ، بأعصاب توشك على الانهيار :

- لقد فشل .. أعلم أنه فشل .. أراهن أنه سيبلغ ذلك الفارس اسمى ، ولكننى سأنكر بالطبع .. سأنكر أية صلة لى به .. سأنكر حتى أنه ابن شقيقى ، وأنه ..

انحبست الكلمات فى حلقه ، وجف لعابه ، وهو يحدق فى رئيس الشرطة ، الذى يتجه إلى منزله من بعيد ، وراح جسده يرتجف ، وهو يقول :

- لقد اعترف ذلك الفاشل .. اعترف ..

بلغ رئيس الشرطة منزله ، ودق بابه فى هدوء ، فاندفع (شالوم) إلى حجرة (ماريو) ، وقال فى توتر :

- رئيس الجند والشرطة هنا .. إنه يدق الباب .

استل (ماريو) سيفه ، وهو يقول فى صرامة :

- لن يأخذنى حيًا .

تشبث به (شالوم) ، قائلًا :

- رويدك يا رجل .. ربما أتى رئيس الشرطة لهدف آخر .

قال (ماريو) ، وهو يلوح بسيفه :

- سيكون هذا من حسن حظه .

أجابه (شالوم) ، وهو يكاد ينهار ، من شدة توتره وانفعاله :

- المهم ألا يراك هنا .. اختف فى حجرتك ، حتى ينصرف ، وإلا كان الموت مصيرى ومصيرك ، لو رأى ذلك الدرع الأسود فى حجرتك .

أغلق الباب على (ماريو) فى إحكام ، وأسرع يتقبل رئيس الشرطة ، وهو يقول فى صوت مرتجف .

- مرحبا برئيس الشرطة .. مرحبا بك فى منزلى .. أى رياح طيبة أتت بك هنا ؟

أجابه رئيس الشرطة ، وهو يلوح بكفه :

- كنت أتفقد الأمور بالقرب من هنا ، فرأيت أن أتناول معك قدحا من القهوة ، التى تجيد خادمتك صنعها .

لم يصدق اليهودى أذنيه ، فهتف :

- فقط ؟!

ابتسم رئيس الشرطة ، وقال :

- أكنت تتوقع شيئًا آخر ؟

انزاح الحمل الثقيل عن كاهل اليهودى ، فانتابته موجة مرح عارمة ، جعلته يهتف فى حرارة :

- منزلى كله رهن إشارتك يا رئيس الشرطة .. أهلا بك وألف أهلًا .

قاده إلى حجرة الضيوف الخاصة ، وأمر خادمته بإعداد القهوة ، التى فاحت رائحتها بعد لحظات ، وهى بين يدى رئيس الشرطة ، الذى ارتشف رشفة منها ، وابتسم قائلًا :

- خادمتك هذه تعد أفضل قهوة ، فى (الأندلس) كلها .

ابتسم اليهودى فى مرح ، قائلًا :

- بالهناء والشفاء ياسيِّدى .

ثم سأله فى اهتمام :

- ولكن لماذا تتفقَّد جندك ، فى هذه الساعة المبكِّرة ؟

أجابه رئيس الشرطة فى بساطة ، وهو يتذوَّق القهوة الطازجة :

- هناك شائعات قوية ، تقول : إن الفارس الأسود سيهاجم الحقول ، فى هذه الناحية ، مع غروب الشمس ، ولقد نقلت الجند كلهم إلى هنا ، استعدادًا للإيقاع به .

سأله (شالوم) :

- ومن أطلق هذه الشائعات ؟

هزَّ رئيس الشرطة كتفيه ، وقال :

- لا يمكنك أبدًا معرفة مصدر الشائعات .

وارتشف البقية الباقية من قدح القهوة ، ثم أعاد القدح الفارغ إلى المنضدة ، وهو ينهض قائلًا :

- المهم أن نستعد لمواجهته ، ولحسن استغلال هذه الفرصة السانحة .

أجابه (شالوم) ، وهو يبتسم ابتسامة كبيرة :

- بالتأكيد .. لا يمكن إضاعة الفرصة قط .

لم يكد رئيس الشرطة يغادر المنزل ، حتى خرج (ماريو) من حجرته ، وهو يقول ساخرًا :

- لقد سمعت كل كلمة نطق بها ذلك الغبى .. من سوء حظه أننى أجيد العربية ، بنفس إجادتى للغتى الأصلية .

ثم أطلق ضحكة ممطوطة ، واستطرد :

- لقد حشدوا جيشهم كله فى الجنوب ، وأفسحوا المجال لنا فى الشمال .. يا للشيطان !.. لم أتصوَّر أبدًا أننى سأثير فزعهم إلى هذا الحد .

سأله (شالوم) فى فضول :

- ماذا ستفعل ؟

أجابه (ماريو) ، فى لهجة أقرب إلى الجذل :

ـ تسألنى ماذا سأفعل ؟! .. سأحاول استغلال الفرصة حتى النخاع بالطبع يا رجل .

ثم اكتست لهجته بالحزم ، وهو يستطرد :

ـ اسمع يا رجل .. إليك ما ستفعله .. ارسل أحد رسلك إلى (قشتالة) ، وقل لهم : إن الفارس الأسود سيشنّ هجومه الأخير الليلة ، فى الشمال ، بالقرب من الحدود ، وأن العرب الأغبياء ، يحشدون قوتهم كلها فى الجنوب ، وعلى فرقنا أن تباغت بالهجوم ، عند مغيب الشمس تمامًا .

وتألقت عيناه ببريق عجيب ، وهو يتابع :

ـ والليلة تسقط (قيجاطة) .. أوّل الطريق إلـى (غرناطة) .

* * *

انطلق جواد قوى ، ينهب الأرض نهبًا ، عبر الحدود العربية القشتالية ، نحو (قرطبة) ، ولم يكد النهار ينتصف ، حتى كان الجواد وراكبه قد بلغا الحصن الملكى هناك ، وفور إبراز تصريحه الخاص ، سمح الحراس للرجل بدخول الحصن ، فهبط عن جواده ، وأسرع على الفور إلى القاعة الملكية ، وهناك انحنى أمام مليكه (فرناندو) ، وهو يلهث فى شدة ، وقال :

ـ مولاى .. لدى أخبار بالغة الخطورة يا مولاى .

سأله (فرناندو) فى قلق :

ـ أية أخبار هذه يا رجل ؟

أجابه الرجل لاهثًا :

ـ أنت تعلم يا مولاى ، أننى قد تسللت وسط الخدم ، فى قصر حاكم (قيجاطة) ، وأننى أنقل إليكم كل ما يحدث هناك ، أوّلا فأوّلا ، و ...

قاطعه (فرناندو) بنفاد صبر :

ـ هات ما لديك يا رجل .. هيا .

لهث الرجل أكثر ، وهو يقول :

ـ حسنًا يا مولاى .. حسنًا .. لقد استقبل الحاكم أمس زائرًا ، لازلت أذكر ملامحه جيدًا ، منذ احتلالنا (قرطبة) .

قال (فرناندو) فى خشونة .

ـ تقصد منذ استعادتنا (قرطبة) .. حسنًا .. ومن هذا الزائر ؟

بدا وكأن انفعال الرجل قد بلغ ذروته ، وهو يجيب :

ـ الوزير يا مولاى .. الوزير .

التقى حاجبا (فرناندو) ، وهو يقول :

ـ الوزير ؟!.. أى وزير ؟

لوّح الرجل بكفيه ، وهو يجيب :

ـ وزير أمير (قرطبة) السابق يا مولاى .. الحكيم . صاحب الخطط المدهشة .. الـ ..

قاطعه (فرناندو) فى انفعال :

ـ رباه .. أتقصد ذلك الوزير ؟!.. وماذا كان يفعل لدى الحاكم ؟

لهث الرجل فى عنف هذه المرة ، مجيبًا :

ـ كان يكشف له خطتنا يا مولاى .. خطتنا كلها .

وهوت الصاعقة على رأس (فرناندو)

★ ★ ★



٨ ـ الثأر ..

هوى سيف (مهاب) بكل قوته ، على نصل سيف (فارس) ، والتقى السيفان فى صليل قوى ورنين عنيف ، ثم انفصلا فى سرعة ، وعادا يتقارعان كأمهر ما تتقارع السيوف ، مما جعل (سالم) يهز رأسه فى إعجاب ، ويقول :

ـ ما أروعه من (فارس) !

وقف يراقب المشهد لربع ساعة أخرى ، توقف بعدها (فارس) عن القتال ، وهو يقول :

ـ هذا يكفى .. لن أرهق نفسى قبل اللقاء الفعلى .

ابتسم (مهاب) ، وجفف عرقه ، قائلا :

ـ صدقت .

أعاد (فارس) سيفه الفضى إلى غمده ، واتجه إلى (سالم) ، وسأله فى اهتمام واضح :

ـ ما الأخبار ؟

أجابه (سالم) :

ـ كل شىء على ما يرام .. المزارعون فى حقولهم ، والحصاد يسير على قدم وساق ، و (قيجاطة) كلها تنتظر ظهورك .. لقد أصبحت رمزًا للأمل فى قلوبهم .

سأله فى هدوء :

- وماذا عن الجنود ؟

هزّ كتفيه ، قائلا :

- الشائعات تقول أنهم يحتشدون فى الجنوب ، استعدادا للقاء الفارس الأسود .

مطّ (فارس) شفتيه ، وقال :

- هذا يجعل الحدود عارية تماما .. يا له من إغراء للقشتاليين !

قال (سالم) :

- لا تجعل هذا يقلقك .

تنهّد (فارس) ، وقال :

- حسنًا .. فليهتمّ كل منا بعمله فحسب .

قالها واتجه إلى المنزل فى خطوات هادئة ، فسأل (سالم) (مهاب) :

- ماذا سيفعل الآن ؟

أجابه (مهاب) مبتسمًا :

- سيذهب للنوم .

هتف (سالم) فى دهشة :

- النوم ؟!.. كيف يمكنه أن يغمض جفنيه ، وهو يستعد لمواجهة الشيطان نفسه ، بعد ساعات قليلة ؟

أجابه (مهاب) ، فى شىء من الزهو :

- هذا ما علمته إياه .. لابد من أن تواجه خصمك ، وأنت فى أفضل حالاتك .. الجسدية والمعنوية ..

هزّ (سالم) رأسه ، قائلا :

- يا إلهى ! لقد صنعتما منه - أنت والشيخ - نسخة معدّلة من أبيه .

شرد (مهاب) ببصره ، وهو يقول :

- بل هو أفضل كثيرًا .

تطلّع إليه (سالم) فى جزع مفاجئ ، وهو يهتف :

- ربّاه !.. جراحك تنزف فى غزارة .

تطلّع (مهاب) إلى الدماء ، التى تغرق ذراعه ، وقال :

- لا بأس .. إنها تحتاج إلى بعض الضمادات فحسب .

أشار (سالم) إلى رجاله ، فأسرعوا يضمدون جراح (مهاب) ، و (سالم) يقول فى قلق :

- ما كان ينبغى أن تشارك (فارس) ، فى تلك التدريبات العنيفة ، قبل أن تلتئم جراحك .. إنك لن تستطيع معاونته ، فى قتاله مع الفارس الأسود .

قال (مهاب) فى هدوء :

- ومن قال إننى سأحاول حتى معاونته ؟

هتف (سالم) مستنكرًا :

- ماذا تقول ؟.. أستتركه يواجهه وحده ؟

أومأ (مهاب) برأسه إيجابًا ، وقال :

- حاول أن تستوعب الموقف يا (سالم) .. الفارس الأسود لم يعد مجرد مقاتل ، يمكن لفرقة قوية من جنودنا إيقافه ، والقضاء عليه .. لقد صار رمزًا لتفوق القشتاليين وقوتهم .. والرمز لا يمكن مواجهته إلا برمز مثله يا رجل .. ورمزنا هو (فارس) ، بزيه الأبيض ، وحرملته الخضراء ، وخوذته الفضية .. إنه الصورة المعكوسة للفارس الأسود ، ولابد له من مواجهته وحده ، والتغلب عليه ، دون أية معاونة خارجية ، وإلا فلا فائدة من وجوده هنا .

استمع إليه (سالم) فى انتباه ، ثم قال :

- فهمت .

إلا أنه لم يلبث أن استدرك فى سرعة :

- ولكن ماذا لو انهزم (فارس) ؟

ارتجف جسد (مهاب) ، وسرت فيه قشعريرة باردة ، لمجرد تصور الفكرة ، وقال فى خفوت :

- عندئذ تكون (الأندلس) قد خسرت الرمز يا رجل .. رمز الفارس .

* * *

عالج (شيلوك) قيوده فى إصرار ، داخل قبو المنزل المظلم ، حتى تمكن من إرخاء إحدى عقدها ، فقال هامسًا لرفاقه :

- لقد نجحت .. سأتخلص من قيودى فى لحظات .

أجابه أحدهم :

- عظيم أيها الزعيم .. تخلص من قيودك ، وحل قيودنا ، ولنبادر جميعًا بالفرار .

قال (شيلوك) فى حدة :

- الفرار ؟ لا يا رجل .. لن نلجأ إلى الفرار أبدًا .

ثم تخلص من قيوده ، وألقاها بعيدًا ، وراح يحل قيود رفاقه ، مستطردًا :

- لن نفر من هنا ، قبل أن نثأر لكرامتنا الجريحة .

سأله أحدهم فى خوف :

- كيف ؟

أجاب فى مقت :

- سنقتلهم جميعًا .. سنذبحهم كالنعاج ، واحدًا بعد الآخر .

هتف أحدهم معترضًا :

- وماذا لو واجهنا ذلك الشيطان الزنجى مرة أخرى ؟

أجابه (شيلوك) فى حدة :

- لقد رحل أمس يا رجل .. ألم تره بنفسك ينصرف ؟

انتهى من حل قيودهم جميعًا ، وقال :

- هذه المرة لن نهاجم بالضجة التى هاجمناهم بها أمس . سنتسلل على أطراف أصابعنا ، ونضرب ضربتنا ، ثم نختفى فى لمح البصر .

بدا القلق والتردد على وجوه الرجال ، فقال فى صرامة :
- فليهتف أحدكم مناديًا الحارس ، وسأقوم أنا بالعمل .
تسلل حتى باب القبو ، ثم أشار إليهم ، فهتف أحدهم مناديًا الحارس ، ولم يكد الحارس يفتح الباب ، حتى انقضّ عليه (شيلوك) ، واعتصر عنقه بساعده القوى ، فلم يتركه إلا جثة هامدة ، ثم قال لرجاله فى ظفر :
- هيا يا رجال .. لقد انفتح أمامنا باب الثأر .
خرجوا على أطراف أصابعهم من القبو ، وتسللوا عبر ممر المنزل الداخلى ، حتى حجرات الضيوف ، وهناك دفع (شيلوك) باب إحدى الحجرات فى خفوت ، وألقى نظرة تفيض بالمقت على (فارس) ، الذى استغرق فى نوم عميق ، واستلّ من حزامه خنجر الحارس القتيل ، واتجه إلى فراش (فارس) ، وتمتم فى كراهية :
- الآن تدفع الثمن ، أيها الفارس العربى .
واستعد الخنجر لذبح ضحيته ..

★ ★ ★

استمع الملك (فرناندو) إلى حديث جاسوسه ، وهو ينتفض من فرط الانفعال ، ثم لوّح بكفيه فى توتر ، قائلًا :
- من أين يأتى ذلك الشيخ بمعلوماته ؟.. أى طاقم من الجواسيس يستخدم ، للحصول على هذه الأسرار الدقيقة ؟


واستلّ من حزامه خنجر الحارس القتيل ، واتجه إلى فراش (فارس) ، وتمتم فى كراهية : — الآن تدفع الثمن ..

أجابه الرجل فى توتر مماثل :

- إنه لم يفصح عن مصادره يا سيِّدى .

ظلَّ (فرناندو) يلوِّح بذراعيه لحظات ، دون أن ينبس ببنت شفة ، ثم قال فى عصبية :

- لابد لنا من اتخاذ إجراءاتنا فى سرعة إذن ، وإلا خسرنا كل شىء

قال الجاسوس :

- يمكننى أن أنطلق على الفور يا سيِّدى .. للقاء الفرق الثلاث ، و ...

قاطعه (فرناندو) فى حدة :

- لن نلحق بها فى الوقت المناسب .. الأمر يحتاج إلى شىء أسرع .

ثم صاح فى توتر :

- (غالا) .

ظهرت الوصيفة الفاتنة ، من خلف ستار قريب ، على نحو يوحى بأنها قد استمعت إلى كل حرف ، تبادله الملك مع جاسوسه ، وقالت فى نعومة :

- أمر مولاى .

أشار إليها (فرناندو) ، قائلا :

- ألدينا هنا حمام زاجل ، يمكنه بلوغ أية نقطة محدودة ، بالقرب من الحدود الجنوبية ؟

- أجابته على الفور :

- نعم يا مولاى .. لدينا زوج من الحمام الزاجل ، من معسكرنا الجنوبى ، ولو حمل رسالة الآن ، يمكنه بلوغ موطنه فى ساعتين على الأكثر ، ولابد للفرق الثلاث من المرور على المعسكر الجنوبى ، قبل بلوغ الحدود .

هتف فى انفعال :

- عظيم .. سنرسل رسالة إلى فرقنا إذن .

أسرع إليه كاتبه ، فأملى عليه رسالة عاجلة ، تأمر الفرق الثلاث بالعودة ، وعدم الاشتباك مع الفرق العربية ، ثم ختمها بخاتمه الخاص ، وناولها إلى (غالا) ، قائلا :

- أرسلى هذه الرسالة على الفور .

انحنت أمامه ، وهى تبتسم فى دهاء ، قائلة :

- سمعًا وطاعة يا مولاى .

حملت الرسالة ، واسرعت بها إلى أبراج الحمام ، الملحقة بالقصر ، والتقطت واحدة من زوج الحمام ، الذى ينتمى إلى المعسكر الجنوبى ، وقالت بابتسامة خبيثة :

- لابد من إرسال هذه الرسالة بأسرع ما يمكن ، وإلا خسرت فرقنا المعركة ، وفشل الفارس الاسود فى مهمته .. وهذا الفارس يبذل أقصى جهده للنجاح ، حتى يفوز بـ(غالا) المسكينة ، التى لم يعد لها شأن ، فى اختيار الشخص الذى يمكنه مشاركتها حياتها وأحلامها .

داعبت الرسالة مرة أخرى بين أصابعها ، وعادت تقول :
- ولكن ماذا لو فشلت مهمتك ، أيها الفارس الأسود ؟ . إنك فى هذه الحالة لن تفوز بالمكافآت ، ولن تحصل علىّ .
اتسعت ابتسامتها الساخرة ، وغمغمت :
- فليكن أيها الفارس الأسود .. إننى أفضّل فشلك .
وتحرّكت فى هدوء نحو قفص آخر ، التقطت منه حمامة ثانية ، وأطلقتها من النافذة ، قائلة :
- هكذا سيرى مليكنا المحبوب الرسالة ، وهى تنطلق إلى الهدف ، وهو لن يتابعها بالتأكيد .. أما أنت أيتها الحمامة الجميلة ، فسيُسعد الملك أن يلتهمك مع طعام العشاء .
وذبحت حمامة المعسكر الجنوبى فى هدوء ..

★ ★ ★

استغرق (فارس) فى نوم عميق ، دون أن يشعر بذلك اليهودى ، الذى يقف عند عنقه ، مستعدًا لذبحه بلا رحمة ..
أما (شيلوك) ، فقد برقت عيناه فى وحشية ، وهو يمسك خنجره ، وتقاطرت منها نظرات الشر والشراسة ، وهو يمد يده ليذبح (فارس) ، و ...
وفجأة امتدت تلك اليد السوداء القوية ، واعتصرت معصمه ككلابة من الفولاذ ..
وارتجف جسد (شيلوك) فى رعب هائل ، واستدار ككلب

مذعور إلى صاحب اليد السوداء ، ولم يكد بصره يقع على وجه (فهد) ، بنظراته الصارمة المخيفة ، ووجهه الجامد الحازم ، حتّى كاد يطلق صرخة فزع ، لولا أن أشار إليه (فهد) إشارة صارمة ، جمُدت الدماء فى عروقه ، وحبست الصرخة فى حلقه ..
وفى هدوء ، انتزع منه (فهد) خنجره ، ثم حمله كطفل صغير من معصمه ، وغادر به الحجرة ، إلى حيث جلس رجاله الثلاثة يرتجفون فزعًا ، وأغلق باب الحجرة على (فارس) فى هدوء ، وكأنما يخشى إيقاظه ، والتفت إلى (شيلوك) ، وأشار إلى حيث القبو ، فى حزم مخيف ، جعل الرجال الأربعة يتعثرون أمامه ، وهم يتجهون إلى القبو ، ويتجاوزون ذلك الحارس ، الذى خنقه (شيلوك) منذ قليل ..
وداخل القبو انفرجت شفتا (فهد) ليخرج صوته عميقًا صارمًا ، وهو يقول مشيرًا إلى الحارس القتيل :
- من فعلها ؟
هوت قلوب الرجال الأربعة بين أقدامهم ، وهتف أحدهم فى هلع وارتياع :
- (شيلوك) .. (شيلوك) قتله .
استلّ (فهد) سيفه فى صرامة ، فهتف (شيلوك) فى ضراعة :
- الرحمة .. لم أقصد قتله .. لم أقصد قتله .

أتاه صوت (فهد) الصارم القوى ، وهو يقول :

ـ من قتل يُقتل .

ثم غاص سيفه فى قلب (شيلوك) ، الذى جحظت عيناه ، وأطلق خوارًا عجيبًا ، قبل أن يسقط عند قدمى (فهد) جثة هامدة ..

وفى هدوء مخيف . أعاد (فهد) سيفه إلى غمدة ، ثم غادر القبو فى خطوات بطيئة ، وترك باب القبو خلفه مفتوحا ، ولم يهتم حتى بتقييد الرجال الثلاثة ، وعلى الرغم من هذا لم يجرؤ أحدهم على الفرار أبدًا .

ولن يفعلوا ..

★ ★ ★

استيقظ (فارس) قبيل غروب الشمس بثلاث ساعات ، وهو يشعر بالحيوية والنشاط ، دون أن يشعر بما فعله (فهد) ، والتقى بـ(مهاب) ، الذى اهتم باعداد وتجهيز ثوب (فارس) الأبيض ، وحرملته الخضراء ، وسأله (فارس) فى هدوء :

ـ أكل شىء على ما يرام ؟

ـ أجابه (مهاب) :

ـ كل شىء كما توقعنا تمامًا .

ردد (فارس) فى هدوء :

ـ حمدًا لله .

ثم انتحى ركنًا من أركان القاعة ، ووقف يصلّى فى خشوع وهدوء ، وسط صمت تام ساد المكان ، مع رهبة الموقف ، حتى انتهى (فارس) من صلاته ، وبدا أكثر انتعاشا ونشاطًا ، وهو يلتقط ثيابه ، قائلًا :

ـ حانت اللحظة المناسبة .

وأخذ يرتدى ثيابه فى هدوء ..

وفى نفس اللحظة ، حمل (ماريو) جعبته ، التى يخفى فيها درع الفارس الأسود ، وقال لـ(شالوم) ، قبل أن يغادر منزله :

ـ استعد يا رجل .. ربما نقش اسمك على جدران (قيجاطة) فى المساء .

ابتسم (شالوم) ابتسامة كبيرة ، وقال :

ـ أتعشم هذا يا سنيور (ماريو) .. أتعشم هذا .

قهقه (ماريو) ضاحكًا ، وانطلق بجواده مبتعدًا ، وهو يقول لنفسه :

ـ أعاهدك أن أنقش اسمك فى المدينة ، أيها اليهودى الحقير ، ولكن على شاهد قبر .

وأطلق ضحكة ساخرة أخرى ، وهو يختفى بين الحقول ، فى حين تنهّد (شالوم) فى ارتياح ، وقال :

- أخيرًا يا (شالوم) .. أخيرًا ستجنى ثمار احتمالك للعرب ، طوال كل هذه السنين .

استدار عائدًا إلى منزله ، ولكنه لمح رئيس الشرطة قادمًا ، على متن جواده ، بصحبة فرقة صغيرة من جنوده ، فاستقبله بابتسامة كبيرة ، وهو يقول :

- مرحبًا برئيس الشرطة .. لا ريب أننى سعيد الحظ ، لأحظى بزيارتك مرتين ، فى يوم واحد .. سآمر خادمتى بإعداد قهوتك المفضلة على الفور .

سأله رئيس الشرطة ، دون أن يهبط عن جواده :

- هل رحل ؟

بدا السؤال مباغتًا لـ(شالوم) ، فارتبك وهو يقول :

- رحل ؟!.. من تقصد يا رئيس الشرطة ؟

أشار رئيس الشرطة لرجاله ، وهو يقول فى سخرية :

- أقصد (ماريو) بالطبع يا (شالوم) .. الفارس الأسود .. ألا تعرفه ؟

انهار (شالوم) تمامًا ، وبكى فى حرارة ، وهو يقول :

- سيدى .. سأشرح لك .

قال رئيس الشرطة فى هدوء صارم :

- لا داعى يا (شالوم) .. ادخر الشرح لقاضى القضاة ، فجريمتك هى الخيانة العظمى ..

حمل رجال الشرطة (شالوم) معهم ، فصاح محاولًا الدفاع عن نفسه :

- سأكفر عن ذنبى .. سأخبركم أين سيذهب الفارس الأسود .. سأشرح لكم ما سيفعله الآن .

أجابه رئيس الشرطة :

- لا داعى يا (شالوم) .. لن يعنينا كثيرًا أن نعلم هذا .

ثم تطلع إلى الأفق ، مستطردًا :

- بل يهمنا فقط ما «سيسفر عنه .

وارتسمت فى ذهنه صورة (فارس) ..

* * *

ارتدى (ماريو) درعه الأسود ، خلف شجرة ضخمة ، ثم حمل مشعله الملتهب ، وامتطى صهوة جواده ، مغمغمًا :

- اليوم تدركون قوة القشتاليين أيها العرب .

جذب عنان جواده ، ولكزه فى بطنه بكعبيه ، ثم انطلق به نحو حقول الشمال ..

ومن بعيد ، لاحت له الحقول ..

كان المزارعون قد انتهوا تقريبًا من حصاد مزروعاتهم ، واستعدوا لنقل ما جمعوه إلى مساكنهم ، عندما لاح لهم الفارس الأسود الرهيب ، وهو يندفع نحوهم بدرعه الداكن ، ومشعله ..

وتفجرت موجة الذعر ..

وتدافع الجميع من كل صوب ..

وصرخت النساء ..

واقترب الفارس الرهيب ..

وفى أعماقه ، أطلق الفارس الأسود ضحكة شيطانية رهيبة ، وهو يلوّح بمشعله ، ويتجه نحو المحصولات ، التى جمعها المزارعون طيلة النهار ..

وهوت القلوب بين الضلوع ..

كانت هذه أكبر وأضخم كمية محاصيل ، تم حصادها هذا العام ..

واحتراقها يعنى الدمار ..

والفقر ..

والجوع ..

وارتفع مشعل الفارس الأسود ، و ...

وانطلق ذلك السهم ، ذو الرأس الماسى ..

والتقى المشعل بالسهم ..

وسقط الاثنان بعيدًا ..

وفى غضب ، التفت الفارس الأسود إلى البقعة ، التى انطلق منها السهم ، ثم قال فى مقت :

ـ آه ! إذن فهو أنت .

كان يتطلّع مباشرة إلى (فارس) ..

وكانت مواجهة جديدة ..

وأخيرة .

★ ★ ★

٩ ـ المواجهة الأخيرة ..

تململ قائد الفرق القشتالية الثلاث ، وهو يتطلّع إلى السهول الممتدة أمامه ، وسط التلال الخضراء ، على الحدود بين العرب والقشتاليين ، والتفت إلى معاونه ، يقول فى ضيق :

ـ تُرى متى نبدأ الهجوم ؟

أجابه معاونه فى تردّد :

ـ المفروض أن ننتظر إشارة بذلك .

تطلّع القائد إلى الأفق ، وقال :

ـ ستغرب الشمس بعد ساعتين على الأكثر ، والهجوم الليلى لا يحقق نتائج طيبة ، مثل الهجوم الصباحى .

تردّد معاونه مرة أخرى ، وقال :

ـ لقد أرسلنا جواسيسنا ، وسيخبروننا عما إذا كان هجومنا مناسبًا أم لا .

غمغم القائد فى سخط :

ـ الهجوم أفضل من الانتظار على الأقل .

لمح المعاون فارسا يأتى من بعيد ، فأشار اليه ، قائلا :

ـ ها هو ذا أحد جواسيسنا يعود .

ألقى القائد بصره بعيدًا ، وقال :

- أرجو أن يحمل أخبارا طيبة .

ولكن الجاسوس راح يصيح ، قبل أن يبلغ موضع الفرق الثلاث :

- فرقة عربية .. فرقة عربية فى طريقها إلى هنا .

هتف القائد فى دهشة :

- ماذا ؟!.. ألم يقل (ماريو) : ان العرب يحشدون جيوشهم فى الجنوب ؟!

قال المعاون ، محاولًا تهدئته :

- ربما هى مجرّد فرقة استطلاعية .. من المؤكد أنهم لن يسحبوا كل فرقهم من الحدود .

بلغ الجاسوس موضع الفرق ، فسأله القائد فى توتر :

- أهى فرقة واحدة ؟

أجابه الجاسوس :

- نعم .. هى فرقة واحدة ، تقطع الطريق إلى هنا ، وستصل بعد قليل ، فأنا أسبقهم بمسيرة ربع الساعة فقط .

هتف القائد :

- فقط ؟!

لم يكد ينطق عبارته ، حتى ظهرت الفرقة العربية من بعيد ، وهى تقترب من الحدود ، فصاح المعاون :

- ها هم أولاء .

ثم التفت إلى قائده ، مستطردا فى توتر :

- ماذا نفعل ؟

عقد القائد حاجبيه فى صرامة ، وهو يقول :

- وماذا تتوقع أن نفعل ؟!.. إنهم فرقة واحدة ، ونحن ثلاث فرق كاملة .. سنقاتلهم بالطبع .

ثم استلّ سيفه ، ورفعه عاليًا ، وهو يقول فى صوت جهورى :

- استعدوا يا رجال .

تحفّز الرجال واستعدّوا ، حتى هتف القائد :

- هجوم .

انطلقت الفرق الثلاث ، لمواجهة الفرقة العربية ، بفارق قوة واضح جلى ، لا يعنى إلا شىء واحد ..

أن الهزيمة مؤكّدة ..

هزيمة الفرقة العربية ..

* * *

مضت لحظات من الصمت ، و (فارس) و (ماريو) يتبادلان نظرات التحدّى والغضب ، دون أن يتحرّك أحدهما من موضعه ، ثم استلّ (ماريو) سيفه ، وقال فى صوت غاضب :

- يبدو أنك لم تتعلّم شيئًا ، من هزيمتك السابقة يا فتى .

امتشق (فارس) سيفه بدوره ، وهو يقول :

- ومن الواضح أنك لم تتعلّم شيئًا ، من تعاملك مع العرب .

ابتسم (ماريو) ابتسامة ساخرة ، أخفتها خوذته السوداء ، وهو يقول فى استهتار :

- بل تعلمت كيف أهزمهم .

ثم أطلق صيحة قتالية رهيبة ، واندفع نحو (فارس) ، الذى أطلق صيحته بدوره ، وانقضّ على خصمه ..

وتقارع السيفان فى عنف ومهارة ، أمام عيون المزارعين ، وراح الفارسان يتقاتلان فى قوة ، و (ماريو) يقول :

- لا تحاول أيها العربى .. لن يمكنك هزيمتى أبدًا .

مال (فارس) ، متفاديا ضربة سيف ، ووجّه إلى خصمه ضربة ماهرة ، وهو يقول :

- الغرور هو أول معول فى قبرك أيها القشتالى .

أصابت ضربته القشتالى فى مقتل ، ولكنها ارتدّت عن درعه الصلب ، فأمسك (ماريو) مقبض سيفه بقبضتيه ، هاتفا :

- أرأيت أنك لن تفلح يا فتى ؟

هوى بسيفه على سيف (فارس) بكل قوته ، ولكن (فارس) استقبل الضربة بسيفه ، ودفع سيف خصمه بعيدًا ، وهو يقول :

- ليس فى كل مرة تفلح الكرة يا رجل .

تراجع (ماريو) بجواده ، وقال فى غضب :

- من الواضح أنك تدرّبت على هذا كثيرًا يا فتى .

قال (فارس) ، وهو يجذب جواده بعيدًا :

- أكثر مما تتصوّر أيها القشتالى .

أوقف (ماريو) جواده ، وأشار إلى صدره ، قائلا :

- لا أمل لك أيها العربى . لن تجد فى جسدى ثغرة واحدة ، يتسلّل منها سيفك إلىّ .

قال (فارس) فى صرامة :

- هذه شيمة الجبناء .

ثم جذب معرفة (رفيق) ، مستطردًا :

- ولكل مشكلة حلّ .

استدار بجواده ، وانطلق مبتعدًا ، فأطلق (ماريو) ضحكة ساخرة ، وقال :

- إذن فحل مشكلتك هو الفرار أيها العربى .

أوقف (فارس) جواده ، على بعد مائتى متر من (ماريو) ، والتفت يواجهه ، وهو يجذب قوسه وأحد سهامه ، قائلًا :

- نحن العرب لا نعرف الفرار ، من أمام خصومنا أيها القشتالى .

ووضع سهمه فى وتر القوس ، فقهقه (ماريو) ضاحكًا فى سخرية ، وقال :

- أراهن أنه أحد سهامك ، ذات الرءوس الماسية .. لقد أخبرنى أحد جواسيسى بهذا ، فاتخذت ما يلزم لإفساد لعبتك ، ودهنت درعى بمادة دهنية ، ستنزلق عنها الرءوس الماسية ، وتصبح خطتك مجرد أضحوكة .

ابتسم (فارس) فى سخرية ، وقال :

- ومن قال إننى سأستخدم سهامًا ذات رءوس ماسية ؟.. تلك الرءوس لم تكن سوى وسيلة لخداعك يا رجل ، فقد كنت أعلم أن أحد جواسيسك سيرصد هذا ، وسينقله إليك ، وأنك ستلجأ إلى خدعة الدهون والشحوم ، التى تنزلق عنها الرءوس الماسية ، وهذا ما كنت أهدف إليه بالضبط .

وجذب وتر القوس فى حزم ، وهو يتابع :

- انظر جيدًا إلى هذا السهم .. إنه سهم عادى ، يحمل فى نهايته قارورة زجاجية صغيرة ، وهذه القارورة تحوى سائلا خاصًا ، يستخلصه (الدمشقى) من ذلك السائل الأسود الكثيف ، الذى ينبع من الأرض(*).. ولهذا السائل صفات خاصة .

ثم انحنى يشعل طرف السهم ، من المشعل الذى سقط من يد (ماريو) ، واعتدل يصوبه مرة أخرى إلى (ماريو) ، مستطردًا فى صرامة .

- إنه يشتعل .

(*) البترول .

واطلق السهم نحو (ماريو) ..

وادرك (ماريو) ما يعنيه (فارس) ..

ادركه بعد فوات الأوان ..

وقبل ان يبتعد عن مرمى السهم ، شعر به يرتطم بصدره ، وسمع صوت القارورة تنكسر ، ويمتزج سائله بالدهون ، التى يطلى بها درعه ، و ..

واشتعلت النيران ..

فى لمح البصر ، تحول الدرع الأسود إلى كتلة من اللهب ، وجفل الجواد الأسود ، فأطلق صهيلًا طويلًا ، وضرب بقوائمه فى الهواء ، ليسقط فارسه عن ظهره ، ثم يعدوا مبتعدًا ..

وفى عصبية وذعر ، راح (ماريو) يتخلص من الدرع المشتعل ، وينزعه عن جسده فى سرعة ، حتى أصبح خارجه ، فاعتدل والغضب يعصف بنفسه ، وعاد يلتقط سيفه الضخم ، وقد احترق جزء من شعره ، وأطراف أصابعه ، وصرخ فى ثورة :

- ستدفع الثمن أيها العربى .. ستدفع الثمن .

وأطلق صفيرًا لجواده ، فعاد إليه عدوًا ، ووثب هو على متنه ، وأضاف فى غضب هادر :

- سأروى الأرض بدمك ، مع غروب الشمس .

وانطلق مرة أخرى نحو (فارس) ..

والتقى السيفان من جديد ..

★ ★ ★

١٠ - الأبيض والأسود ..

امتلأت نفوس القشتاليين بالارتياح والزهو ، وهم ينقضون بفرقهم الثلاث على الفرقة العربية ، التى توقف جنودها ، فور أن لاح لهم طيف القشتاليين ، واتخذوا وضعًا قتاليًا متحفزًا ، جعل قائد القشتاليين يُطلق ضحكة ساخرة عالية ، وهو يقول :

- يتصوَّرون أنهم سينجحون فى التصدِّى لنا .. إننا سنسحقهم سحقًا .

رفع العرب أقواسهم وسهامهم ، وصوّبوها إلى القشتاليين ، فلوّح قائد الفرنجة بيده ، وصاح برجاله :

- فليرفع كل منكم مجنه .. سيطلق العرب سهامهم .

انطلقت سهام الفرقة العربية ، فى اللحظة نفسها ، فصدَّها القشتاليون بتروسهم . وقهقه قائد القشتاليين ، قائلًا :

- هذا أقوى ما يملكون .. قلت لكم إننا سنسحقهم سحقًا .

ولكن معاونه صرخ فجأة :

- فخ .. إنه فخ يا سيِّدى .

جذب القائد عنان جواده ، وتلفت حوله فى توتر ، لم يلبث أن انقلب الى ذعر هائل ، عندما رأى الفرق العربية الأربع ، التى عبرت التلال ، فى التو واللحظة ، وانقضت على فرقه الثلاث من كل صوب ، وصرخ بدوره :

- لقد خدعنا العرب .

انهالت سهام العرب على القشتاليين ، من كل الاتجاهات ، فسقط منهم من سقط ، وارتبك الباقون ، والتحم الجيشان فى عنف ، وارتفعت السيوف وهوت .. وتصاعد غبار الحرب ، وغطى ساحة القتال ..

وكانت المفاجأة أضخم مما يتصوَّر القشتاليون ..

لقد حشد العرب أفضل فرقهم عند الحدود ، وصنعوا للقشتاليين فخًا لا فكاك منه ..

وأيقن قائد القشتاليين من الهزيمة ، فصاح وعلمه يسقط تحت أقدام الخيول :

- تراجعوا يا رجال .. انسحبوا .

تخبَّط جنوده أكثر ، وهم يحاولون الفرار ، واختلط الحابل بالنابل ، وسقط من القشتاليين عدد أكبر ، وهم ينسحبون بكل الذعر والفزع ..

وانطلقت الفرق العربية تطارد فلول الهاربين ، وسقط قائد القشتاليين فى الأسر ، واندحر جنوده ..

وكان انتصارًا رائعًا ..

لقد حطم العرب أنف القشتاليين ، فى هذه المعركة .. وبقيت معركة الفارسين ..

الأبيض .. والأسود ..

★ ★ ★

كان مشهدًا رهيبًا مثيرًا ، عندما التقى الفارسان هذه المرة ..

(ماريو) كان يرتدى ، تحت درعه ، ثوبًا حالك السواد ، ارتسم على صدره شعار القشتاليين ، ويمتطى جوادًا فى لون الليل ، فى حين كان (فارس) يرتدى ثوبه الأبيض ، ويمتطى جواده الناصع البياض ..

كان قتالا بين الأبيض والأسود ..

بين الشرق والغرب ..

بين الأمل واليأس ..

وكان القتال هذه المرة أعنف من كل المرات السابقة ..

كانت السيوف تلتقى ، فيدوى صليلها فى الوادى كله ، وتفترق ، فترتجف القلوب مع افتراقها ..

(ماريو) يقاتل بكل الغضب الكامن فى نفسه ، و(فارس) يضرب بكل الإيمان والعزة فى أعماقه ..

أما الجوادان ، فقد راح كل منهما يضرب الآخر بقوائمه ، ويطلق صهيله فى قوة وبأس ويتقافز مع تقارع السيفين ..

وفى كل العيون ، بدا (فارس) أقوى وأعظم ..

كان (ماريو) يحمل ترسه ، ويركب جوادًا مسرجًا ، له عنان من الجلد القوى ، فى حين لم يحمل (فارس) ترسًا ، ولم يمسك عنانًا ، أو يمتطى سرجًا ..

ولكن الفارسين كانا يقاتلان فى براعة مدهشة ..

وكلما احتدم القتال ، كان (ماريو) يعيد مجنّه إلى بروز خاص فى سرجه ، ثم يمسك سيفه بقبضتيه ، ويهوى به بكل قوته على سيف (فارس) ، الذى يتلقى الضربة فى بأس وقوة ، ويضرب بسيفه أقوى وأشدّ ..

وهتف (ماريو) ، وهو يضرب فى حقد وغضب :

- أتعلم كيف كانوا يدربوننا على القتال يا فتى ؟.. كنا نقضى نهارنا كله ، ونحن نضرب جذوع الأشجار بكل قوانا .. أتعلم كم شجرة أسقطتها بسيفى هذا .

تفادى (فارس) ضرباته فى مرونة ، وهو يقول :

- أما نحن فلا نقطع الأشجار أيها القشتالى ، وإنما نزرعها .. أما تدريباتنا ، فتعتمد على المراوغة والمحاورة والمناورة .

قهقه (ماريو) بضحكة عصبية ، وراح يضرب بعنف أكثر ، وهو يقول :

- هراء أيها العربى .. تدريباتكم أسخف من تدريبات مصارعى الديوك لدينا ، ولا فائدة لها عمليًا .. هل لك أن تخبرنى أية فائدة يمكن أن تعود عليك ، من قيادة جوادك دون سرج أو لجام ؟

تراجع (فارس) بجواده ، وقال ساخرًا :

- هناك فوائد جمة أيها القشتالى .

ثم انقضّ على القشتالى بغتة ، وانحنى متفاديًا ضربة قوية من سيفه ، ثم ضرب بسيفه حزام سرجه ، الملتفّ حول بطن الجواد ، وهو يستطرد :

ـ كهذا مثلًا :

انقطع الحزام ، الذى يربط السرج إلى بطن الجواد ، فاختلّ توازن (ماريو) ، وحاول أن يتشبث بجواده ، إلا أنه انزلق عنه ، برغم أنفه ، وسقط على الأرض ، وهو يصرخ فى غضب :

ـ اللعنة !

انطلقت شهقات ظافرة من حلوق المزارعين ، الذين يتابعون القتال ، عندما سقط (ماريو) عن جواده ، واشتعل فى قلوبهم الأمل ، على الرغم من أن (ماريو) قد قفز واقفًا على قدميه ، وشهر سيفه مرة أخرى فى بأس ..

وفى هدوء ، تطلّع (فارس) إلى (ماريو) ، ثم ربّت على عنق جواده ، قائلًا فى بساطة .

ـ معذرة يا (رفيق) .. لقد انتهى دورك هنا .

وهبط عن متن جواده ، وأشار إليه بالابتعاد ، ثم أمسك سيفه ، وعاد يواجه القشتالى ..

وللحظات ، ظلّ كل منهما يتطلّع إلى الآخر بنظرات متحدية صارمة ، ثم ارتفع السيفان ، وتقارعا مرة أخرى ..

وفى هذه المرة ، أمسك كل منهما سيفه بقبضتيه ، وراح يهوى به على سيف خصمه ، فى قوة وعنف ، و (ماريو) يقول :

ـ لن يحتمل ساعدك هذا القتال طويلًا أيها العربى .

أجابه (فارس) فى صرامة :

ـ سنرى أيها القشتالى .

مالت الشمس إلى المغيب ، والفارسان يتقاتلان فى عنف وشراسة ، وراح (مهاب) و (سالم) يراقبانهما من بعيد ، و (سالم) يقول فى قلق :

ـ أتظنه ينجح ؟

أجابه (مهاب) فى توتر :

ـ لست أدرى .. من الواضح أن هذا القشتالى قوى صنديد ، وضرباته أعنف وأقوى من ضرباتى كثيرًا ، ولست أدرى ما إذا كان (فارس) سيحتملها أم لا .

تطلّع (سالم) إلى المشهد لحظات ، ثم لاحت منه التفاتة إلى الأفق ، حيث قرص الشمس ، فانطلقت من حلقه شهقة قصيرة ، جعلت (مهاب) يسأله فى قلق :

ـ ماذا هناك ؟

أشار إلى حيث الغروب ، وقال فى انفعال :

ـ انظر .

التفت (مهاب) إلى حيث يشير (سالم) ، وخفق قلبه فى عنف ..

فهناك .. عند الأفق ، وفوق تل قريب ، يظهر خلفه قرص الشمس كله ، وقف جواد أسود ، وفوقه (فهد) ..

كان الزنجى يراقب القتال من بعيد ، وهو يمسك قوسه وسهمه ، مما جعل (سالم) يقول فى انفعال :

- إنه يراقبهما .

غمغم (مهاب) :

- بل هو يراقب (فارس) .

سأله (سالم) :

- ولكن لماذا يمسك قوسه وسهمه ؟

صمت (مهاب) لحظة ، ثم أجاب :

- خشية أن يخسر (فارس) القتال .

تطلع إليه (سالم) فى دهشة ، وقال :

- وماذا يمكنه أن يفعل حينذاك ؟

طال صمت (مهاب) هذه المرة ، قبل أن يقول فى حزم صارم :

- ينتقم .

ارتجف (سالم) لسماع الكلمة ، ثم عاد يتابع الموقف فى توتر أكثر ..

وكان التعب قد أصاب الخصمين فى شدة ، فراح كل منهما يتصبب عرقا فى غزارة ، وقال (ماريو) لاهثا :

- رائع أيها العربى .. لقد احتملت ضرباتى طويلا ، ولكن هذا لن يستمر الى ما لا نهاية .

قال (فارس) ، وهو يلهث بدوره :

- أتقصد ضرباتك ؟

هتف (ماريو) :

- بل مقاومتك أيها العربى .

قالها وهو يستجمع كل قوته ، وبأسه ، ورفع سيفه صارخا :

- لقد انتهت بالفعل .

جاءت ضربته هذه المرة كالصاعقة ، وكأنما حملت كل ما تبقى من قوته دفعة واحدة ، وهو يصرخ :

- خسرت أيها العربى .

وشعر (فارس) بكيانه يتزلزل مع الضربة ، التى نجحت هذه المرة ، فيما لم تنجح فيه الضربات السابقة ..

لقد انتزعت سيف (فارس) من قبضته ، وألقت به على بعد عشرة أمتار ..

وشهق المزارعون فى رعب ..

وتجمدت الدماء فى عروق (مهاب) ..

وارتجف جسد (سالم) ، وهو يرفع بصره إلى (فهد) ، الذى رفع قوسه وسهمه ، واستعد لإطلاق السهم ، فى نفس اللحظة التى ضرب (ماريو) فيها سيفه ، من أسفل إلى أعلى ، ليمزق قميص (فارس) وصدره ، مكررا بصرخة ظافرة :

ـ خسرت .

شهق الجميع مرة أخرى فى ارتياع ، عندما تدفقت الدماء من صدر (فارس) ، لتلوّث ثوبه الأبيض ، وهتف (مهاب) فى لوعة :

ـ (فارس)؟!

أما (ماريو) فأطلق ضحكة ظافرة عالية ، وهو يرفع سيفه ، صارخًا :

ـ فلتذهب المراوغة والمناورة إلى الجحيم .. إنها لم تنفعك أيها العربى .

قفز (فارس) إلى الخلف ، مقاومًا آلام جرحه ، واندفع (ماريو) يطارده ، مكررًا :

ـ فشلت المراوغة والمناورة يا فتى .. لم تنفعك .. لم تنفعك .

قالها وهو يرفع سيفه فى عنف ، ليهوى به على عنق (فارس) ، وهوت القلوب بين الأقدام ، وأغمض (سالم) عينيه فى ألم ، وشهق (مهاب) فى ارتياع ، وجذب (فهد) وتر قوسه ، و ....

وهوى (ماريو) بسيفه ..

كانت ضربته قوية عنيفة ، تكفى لشج رأس (فارس) ، وقطع عنقه ، وتمزيق جسده إربًا ، ولكن (فارس) تفادى

الضربة فى براعة مدهشة ، وارتفعت قدمه تركل (ماريو) فى وجهه ، ثم قفزت يده تلتقط سيفه الفضى ، الملقى أرضًا ، وأداره فى سرعة مذهلة ، وضرب به صدر (ماريو) ضربة مباغتة عنيفة ..

واتسعت عينا (ماريو) فى ألم وذهول ، وغاص السيف الفضى حتى مقبضه فى صدره ، ونفذ نصله الملوّث بالدماء من ظهره ، و (فارس) يلهث قائلًا :

ـ لقد نفعت المناورة والمراوغة أيها القشتالى .

ترنّح (ماريو) لحظة ، وتفجّرت الدماء من بين شفتيه ، ثم سقط جثة هامدة ..

ولثوان ، ساد الحقول صمت عميق ، قبل أن يتفجّر الهتاف ، ويندفع الجميع نحو (فارس) ، الذى ترنّح قائلًا لـ(مهاب) :

ـ لقد ربحت .. ربحت يا (مهاب) .

غمغم (مهاب) :

ـ نعم يا فتى .. لقد ربحت .

وسقط (فارس) بين ذراعى (مهاب) ، فى حين ألقى (سالم) بصره إلى التل ..

ولم يكن هناك أثر لـ(فهد) ..

أدنى أثر .

* * *



واتسعت عينا (ماريو) فى ألم وذهول، وغاص السيف الفضى حتى مقبضه فى صدره، ونفذ نصله الملوّث بالدماء من ظهره ..

١١ ـ الختام ..

يوم كامل قضاه (فارس) فاقد الوعى ..

يوم كامل قضاه فى قصر الحاكم ، يرتجف من فرط الحمى والألم ..

وعندما استعاد وعيه ، كان الجميع يحيطون به ..

(مهاب) ، و (سالم) و (الحاكم) ..

الجميع فيما عدا (فهد) ..

ولقد شملت الفرحة القصر كله ، عندما استعاد (فارس) وعيه ، وهتف به الحاكم فى سعادة :

ـ حمدًا لله على سلامتك يا ولدى .. لقد انتصرنا على القشتاليين بفضلك ، ونجحنا فى القضاء على رمز شرورهم وفسادهم .

غمغم (فارس) :

ـ القتل لا يدعو للفخر يا سيّدى .

لوّح الحاكم بذراعيه ، هاتفًا :

ـ ولكن الجميع ينتظرونك خارج القصر ، لقد أخبرناهم أنك شفيت ، واستعدت وعيك ، ولكنهم يصرّون على رؤيتك .

تحامل (فارس) على نفسه ؛ لينهض قائلًا :

ـ لقد فعلت هذا من أجلهم .

حاول (مهاب) أن يثنيه عن النهوض ، قائلا :

- إنك لم تستعد قوتك بعد .

قال فى حزم عنيد :

- لن أبخل عليهم بتحية .

ساعده (مهاب) و (سالم) ، على بلوغ الشرفة ، حيث استقبله سكان المدينة بهتاف حار ، وسعادة غامرة ، ولوّح هو بذراعيه لهم ، ثم عاوده ضعفه ، فأعاده (مهاب) إلى فراشه ، وهو يقول :

- لقد أرسلت أبلغ الشيخ بما حدث ؛ ورسول الحاكم فى طريقه إلى مولاى الملك الآن .

غمغم (فارس) ، وهو يبتسم ابتسامة شاحبة :

- حقًا ؟!

ثم أسبل جفنيه ، و (مهاب) يقول :

- نعم .. ورسالتى تشرح للشيخ كل ما حدث ، و ...

ولكن (فارس) لم يسمع من حديثه حرفًا واحدًا ..

لقد راح فى سبات عميق ..

أو عاد إلى غيبوبته ..

* * *

نهض ملك غرناطة يستقبل الشيخ فى حرارة ، وعانقه فى سعادة ، وهو يقول :

- مرحبًا بك أيها الوزير .. مرحبًا بك ألف مرة .. لا ريب أن الأخبار قد بلغتك كما بلغتنى .. أرأيت ما فعله ربيبك ؟.. رائع هو هذا الفتى .. لقد حقّق أفضل مما كنا نتصوّر بكثير .

ابتسم الشيخ فى وقار ، وهو يقول :

- بل حقّق ما كنت أنتظره منه يا مولاى .

ربّت الملك على كتفه فى حرارة ، وقال :

- صدقت .

ثم أشار إليه بالجلوس ، وقال فى اهتمام :

- قل لى أيها الوزير : ألم يقلقك مرة أمر المُلك فى (غرناطة) ؟

سأله الوزير فى رصانة :

- ولماذا يُقلقنى يا مولاى ؟

هزّ الملك كتفيه ، وقال :

- أنت تعلم أننى لم أنجب ولدًا ، وأن (جميلة) هى ابنتى الوحيدة ، وتقاليدنا لا تسمح لفتاة مثلها باعتلاء عرش البلاد ، ولقد أصبحت أنا مسنًا ، و ...

لم يتم عبارته ، وإنما اعتدل على عرشه ، مستطردًا :

- أظنك تفهم ما أعنيه .

ابتسم الشيخ فى وقار ، وقال :

- أحتاج إلى توضيح أكثر ، وصراحة أكبر يا مولاى .

تنهّد الملك ، وقال :

- (فارس) يحمل فى عروقه دماء ملكية ، كما نعرف أنا وأنت .

قال الشيخ فى هدوء رصين :

- لا توجد دماء ملكية وأخرى عادية يا مولاى .

مطَّ الملك شفتيه ، وقال :

- أعنى أن له أصلا ملكيًا .

أومأ الشيخ برأسه إيجابًا ، وقال :

- هذا صحيح يا مولاى .

شعر الملك أنه يضيع الوقت فى محاورات ، لا طائل منها ، فطرق الموضوع مباشرة ، وهو يقول :

- ما رأيك فى (فارس) ، زوجا لابنتى (جميلة) ؟

لم يبد أن هذا قد فاجأ الشيخ ، أو أصابه بالدهشة ، فقد ظلَّ هادئا رصينا ، وإن انتقى كلماته فى عناية ، وهو يجيب :

- المهم هو ما رأيهما هما ؟

ابتسم الملك ، وأجاب :

- بينى وبينك ، أنا أعلم أن (جميلة) تميل إليه كثيرًا ، فهى تتلهَّف دائما لسماع أخباره ، وتحدث عنه وصيفتها .

قال الشيخ فى خفوت :

- وماذا عنه هو ؟

تلاشت ابتسامة الملك ، وانعقد حاجباه ، وهو يقول :

- وأين يمكنه أن يجد أفضل منها ؟.. إنها فاتنة ، وكريمة المحتد ، و ...

قاطعه الشيخ فى حذر :

- فلننتظر ، حتى نسمع رأيه يا مولاى .

قال الملك فى حدة :

- المهم رأيك أنت .

صمت الشيخ لحظات ، قبل أن يجيب فى هدوء :

- رأيى لن يصنع فارقًا كبيرًا يا مولاى ، ولكن إذا كان الزواج منها سيسعد (فارس) ، ويفيد قضيته ، فلماذا أرفض هذا ؟

كانت إجابة مطاطة ، قد لا تعنى شيئا قط ، ولكن الملك تجاهل هذا ، واعتدل على عرشه ، وهو يقول :

- على بركة الله .

وعادت الابتسامة إلى شفتيه ..

* * *

لم يتوقف عقل (فارس) عن استرجاع تفاصيل قتاله مع القشتالى أبدا ..

حتى وهو غارق فى غيبوبته ..

وحتى فى سباته العميق ..

كان عقله يسترجع كل ضربة سيف ..

كل صرخة ..

كل صهيل أطلقه جواد ..

كل شهقة أطلقها المشاهدون ..

ثم تجمعت ذكرياته كلها عند الأحداث الأخيرة ..

سيفه الذى فقده ..

ضربة سيف القشتالى فى صدره ..

ثم ضربته هو ..



وانتفض جسده ، عندما بلغ حلمه هذا الحد ، وراح يتمتم :

ـ لقد ربحت .. لقد ربحت .

شعر بأنامل حانية تتحسس جبهته ، ففتح عينيه دفعة واحدة ، وتطلع إلى الوجه المطل عليه ، وإلى العينين المفعمتين بالإخلاص والوفاء ، واللتين تتوسطان وجه الزنجى (فهد) ، وسط ضوء الحجرة الشديد الخفوت ..

وشعر (فارس) بالدهشة ..

أدهشه أن تمتلك أصابع (فهد) كل هذه القوة ، وكل هذا الحنان ، فى آن واحد ..

وبابتسامة شاحبة ، تمتم (فارس) :

ـ (فهد) .. كنت واثقًا من أنك ستأتى .

ارتسمت على الوجه القوى ابتسامة هادئة أدهشت (فارس) أكثر ، فتطلع إليها لحظات فى صمت ، ثم سأل (فهد) :

ـ أأنت أخى بالتبنى حقًا يا (فهد) ؟

حافظ (فهد) على ابتسامته الهادئة ، دون أن ينبس ببنت شفة ، وتحسس جبهة (فارس) مرة أخرى ، فرفع (فارس) يده إليه ، قائلا :

ـ فليكن يا (فهد) .. إننى أحمل لك الكثير من الشكر ، فقد أنقذت حياتى أكثر من مرة ، و ..

قاطعه (فهد) بطريقة مدهشة ..

لقد وضع راحته فى كف (فارس) ، ثم صافحه ..

وكانت مصافحة عجيبة ..

ضغطة اليد كانت تحمل الامتنان ، والقوة، والحنان ، والإخلاص ، والسعادة ..

كلها فى آن واحد ..

وبصوت غلبه التأثر ، قال (فارس) :

ـ أنت أخى يا (فهد) .. قلبى يؤكد هذا .

ولكن (فهد) ظلّ يضع يده فى يد (فارس) لحظات ، وانتزعها فى رفق ، وخفض إحدى ركبتيه أرضًا ، وانحنى امام (فارس) ، ثم اعتدل ، وألقى عليه نظرة أخيرة ، ثم وثب عبر النافذة ، واختفى ..

وأسبل (فارس) جفنيه مرة أخرى ، وتمتم :

ـ كم سيسعدنى هذا يا (فهد) .

وعاد يسترجع ذكرى القتال المرير ، الذى انتصر فيه أفضل الفارسين ..

(فارس الأندلس) .

★ ★ ★

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع : ٤٦٨٤

٢ / ٠٠٣ / ٢٦٦ / ٩٧٧



٤

فارس الأندلس

من البطــولات العربيــة
فى أحرج فترة للعرب فى أسبانيا

الفارس الأسود

- من ذلك الفارس الأسود ، الذى أثار الرعب فى مملكة (غرناطة) ؟
- ماسر التاجر اليهودى ، الذى ابتاع كل محاصيل المدينة ؟
- تُرى هل ينجح (فارس الأندلس) فى التصدى للخوف ، أم يربح ذلك (الفارس الأسود) ؟
- اقرإ التفاصيل المثيرة ، وشارك فى البطـولات العربية ، فى أرض (الأندلس) .

الرواية القادمة : الهـــاربة

المؤلف



د. نبيل فاروق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

الثمــن فى مصــر ٣٠٠ ص
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم